حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ التَّارِيخِ الإِسلاميِّ والوسيط

٦

الهيئة المصرية العامة للكتاب

حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ التَّارِيخِ الإسلاميِّ والوسيط

مجلة سنوية محكمة تعني بالتاريخ الإسلامي والوسيط

يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط

بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية

حقوق الطبع محفوظة

للهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب

١٨٧٥٠

الترقيم الدولي

١٤٤٠هـ/٢٠١٨م

قطعة ٤ بلوك ٧ ـ المنطقة التاسعة ـ شارع د. رؤوف عباس ـ مدينة نصر ـ القاهرة

تليفون : ٠١١٢٧٣٨٩١٢ ـ ٢٤٧٢٨٢٩٤ ـ ٢٤٧٢٨٢٩٦ ـ فاكس : ٢٤٧٢٨٢٩٨

Email: Seehist1995@yahoo.com

الهيئة المصرية العامة للكتاب

حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ
التَّاريخِ الإسلاميِّ والوسيط

تُصْدرها

الجمعية المصرية للدِّراسات التاريخية

المراسلات : الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد

رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

العدد السادس

القاهرة

٢٠١٨م

رئيس مجلس الإدارة أ. د/ أيمن فؤاد سيد

هيئة التحرير

رئيس التحرير أ. د/ حسين عبد الله مراد
مدير التحرير د/ محمد فوزي رحيل
المحررون : أ. د/ صلاح عاشور
أ. د/ عبير زكريا سليمان
د/ عبد الناصر عبد الحكم
أ.د/ نهلة أنيس مصطفى

الهيئة الاستشارية

أ.د/ إسحق تاوضروس عبيد
أ. د/ أيمن فؤاد سيد
أ.د/ حاتم عبد الرحمن الطحاوي
أ.د/ عفاف سيد صبرة
أ.د/ محمود إسماعيل عبد الرازق
أ.د/ يسري أحمد زيدان

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها ،
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو السمنار أو الناشر

شروط النشر

ـ أن يكون الباحث عضوًا في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

ـ أن يتسم البحث بالأصالة المنهجية العلمية ، والجدة في الموضوع .

ـ أن يكون البحث صحيح اللغة سلس الأسلوب واضح الدلالة .

ـ ألا يكون قد سبق نشره ، أو قُدِّمَ للنشر إلى جهة أخرى ، وألا يكون مستلًّا من رسالة علمية .

ـ ألا تزيد صفحات البحث عن ٣٠ ورقة .

ـ أن يكتب المتن بخط Simplified Arabic بنط ١٤ ، والعنوان الرئيس بنط ١٨ Black ، والعناوين الجانبية بنط ١٤ Black .

ـ الحواشي:

= الحواشي العربية بنط ١٢ Simplified Arabic حسب النظام المعمول به في هذا العدد .

= الحواشي اللاتينية بنط ١٠ Times New Roman حسب النظام المعمول به في هذا العدد .

ـ أن تذكر المعلومات الببلوجرافية للمصادر والمراجع كاملة عند أول ذكر لها في الحواشي ، استغناءً عن قائمة المصادر والمراجع .

ـ يسلم عدد ٢ نسخة ورقية من البحث لمقر الجمعية بمدينة نصر خلف مدرسة المنهل ، وترسل نسخة إلكترونية لمدير التحرير الدكتور/ محمد فوزي رحيل على البريد الإلكتروني raheela2010@gmail.com

ـ تحكيم البحوث يكون سِرِّيًا ، بمعرفة هيئة تحرير المجلة .

كلمة التحرير

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه . يسعد هيئة تحرير حولية سمنار ، التاريخ الإسلامي التي يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية أن تقدم للقراء الكرام العدد السادس ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٨م من الحولية ، وهي الحولية التي أسسها الراحل المؤرخ الجليل الأستاذ الدكتور علي السيد علي ـ رحمه الله ـ عام ٢٠١١م . ويضم هذا العدد بين دفتيه أحد عشر بحثًا ، تطوف بنا عبر فرعَي التاريخ الإسلامي والوسيط؛ إذ يلحظ المطالع لبحوث العدد تنوع الدراسات المقدمة بين فرعَي التخصص ، كتبها مجموعة من الباحثين المجيدين من مختلف الجامعات المصرية ، وافتتح العدد بمقال حول العطاء العلمي لمؤسس السمنار أ .د/ علي السيد علي ـ طيب الله ثراه ـ بعنوان «علي السيد رائد دراسات الحرم القدسي الشريف» ، وبدءًا من هذا العدد تنوى أسرة التحرير افتتاح الأعداد القادمة بمقال حول سيرة أحد رواد تخصص التاريخ الإسلامي والوسيط الراحلين أملًا في حفظ سير هؤلاء الأعلام حتى تكون قدوة ونبراسًا لأجيال قادمة من المؤرخين .

وترحب أسرة السمنار بالمتخصصين في التاريخ الإسلامي والوسيط للمشاركة في جلسات السمنار الشهرية ، بإلقاء بحوثهم بشرط الأصالة المنهجية وجدة الموضوع ، ومن يرغب في نشر بحثه في الحولية سوف يقدم للتحكيم السري بمعرفة هيئة التحرير ، وما يجاز منها ينشر في الأعداد التالية إن شاء الله . كما يرحب السمنار بجميع المتخصصين والمهتمين بمختلف فروع التاريخ لحضور الجلسات لإثرائها بالنقاش المُثمر .

ويطيب لأسرة التحرير تقديم أسمى آيات الشكر والتقدير لمجلس إدارة الجمعية برئاسة المؤرخ الجليل والمحقق الكبير الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد ؛ لجهودهم الدؤوبة لازدهار الجمعية المصرية للدراسات التاريخية لتظل في صدارة الجمعيات التاريخية العربية .

والله من وراء القصد والهادي إلى سواء السبيل،،،،،،

أسرة التحرير

المحتـويات

الصفحة

على السيد علي رائد دراساتُ الحرمِ القدسيِّ الشريف
محمد فوزي رحيل ١١-١٦

أسرةُ ثيوفلاكت ودورُها السياسيُّ والدينيُّ في روما
محمد زايد عبد الله ١٧-٥٠

مكتباتُ الأديرة في ضوْءِ التيبيكا البيزنطيةِ
نعيمة محمد إبراهيم ٥١-٨٦

سفاراتُ العلماءِ في العصرينِ الغزنويِّ والسلجوقيِّ
مرفت رضا ٨٧-١٣٠

الوشايةُ وأثرُها في البلاطين المرابطيِّ والموحديِّ
أحمد إبراهيم رفاعي ١٣١-١٤٨

دولةُ الخطَا في الصينِ وتركستانَ وكرمانَ
عبد الناصر إبراهيم عبد الحكم ١٤٩-١٨٢

ادعاءُ النبوةِ في مصر والشامِ عصر سلاطينِ المماليكِ
محمود عبد المقصود ثابت ١٨٣-٢١٨

الكلابزيةُ في عصرِ سلاطينِ المماليكِ
أحمد عبد الله أحمد ٢١٩-٢٤٤

قراءةُ الجوقِ وقراؤها في مصَر خلال القرنينِ ٨-٩هـ
محمد جمال حامد الشوربجي ٢٤٥-٢٦٨

المجددونَ والتاريخُ الإسلاميِّ (الإمام محمد عبده نموذجًا)
حسام عبد الظاهر ٢٦٩-٣٠٢

صورةُ صلاحِ الدينِ في السينما الغربيةِ بينَ الحقيقةِ والخيالِ
فتحي عبد العزيز محمد ٣٠٣-٣٢٣

سفارات العلماء في العصرين الغزنوي والسلجوقي
(٣٥١هـ ــ ٥٥٢هـ /٩٦٢م ــ ١١٥٧م)

د/ ميرفت رضا أحمد حسنين محمد*

ترتبط السفارات بوجود الجماعات البشرية ذاتها، وتمتد جذورها إلى ما قبل التاريخ عندما كان بعض الاشخاص يوفدون في مهام محددة كممثلين شخصيين لرؤساء قبائلهم، وذلك لمعالجة بعض القضايا أو المشاكل. ونظرا لتعذر الاتصال المباشر بين رؤساء القبائل أحيانا برزت الحاجة إلى إرسال الممثلين (السفراء) إلى بعضهم البعض، ولهذا كان رؤساء القبائل يختارون أشخاصا ممن تميزوا بالذكاء والدهاء وسعة الحيلة، يوفدونه في مهمة محددة إلى رئيس قبيلة أخرى كسفير موثوق به ومزود بالصلاحيات اللازمة؛ للتحدث باسمه وتحقيق الأهداف المنوطة ببعثته. وعادة كان يتم اختيار السفراء من بين كبار التجار أو العلماء أو رجال القضاة.

وقد استمدت الدبلوماسية العربية الإسلامية أصولها وقواعدها من الشريعة الإسلامية بعد أن استوعبت تجارب الأمم التي سبقتها، ويظهر هذا في اختيار السفراء وتزويدهم بوثائق الاعتماد، وفى معاملة المسلمين للسفراء الأجانب. ويتعين على الباحث بادئ ذي بدء أن يترسم هذه الخطى منذ أيام سيدنا محمد ﷺ الذى يعد المعلم الأول للسفراء المسلمين وهو مؤسس نظم السفارات وواضع

* أستاذ مساعد ـ كلية العلوم الإنسانية جامعة الملك خالد ـ المملكة العربية السعودية.

أصولها الثابتة وقواعدها المحددة ومنهاجها القويم ، الذى اتبعه خلفاؤه من بعده في سبيل تثبيت بناء الدولة الاسلامية والدفاع عن عقيدتها وكيانها باعتبارها الأصل الذى تفرعت منه هذه الدبلوماسية. وفى العصرين الغزنوي والسلجوقي اتسع نطاق النشاط الدبلوماسي بعد أن تعددت مهام السفارات ، بحيث أصبح تبادل السفراء وسيلة لتوثيق العلاقات التجارية وتبادل العطايا ، وغير ذلك من الأغراض الثقافية والسياسية والعسكرية مما يفرض على الباحثة الاهتمام به ودراسته في هذه الفترة المهمة من تاريخ الإسلام .

فموضوع سفارات العلماء في العصرين الغزنوي والسلجوقي يُعد من أبرز موضوعات العلاقات الدولية وصلب العلاقات الخارجية للدول في ذلك العصر ، ذلك أن السفير المتقن لمهمته يلقى من الاحترام والتقدير ما يجعله يرسم خيوط التعاون ، ويبني جسور الثقة ، ويرسي قواعد السلم ، ويبعد الحرب مما يحقق السلم. وتكمن أهمية البحث في محاولة مناقشة الذين يزعمون أن العلاقات الدولية ، وما يتعلق به من أحكام السفراء قد نشأت في بيئة بعيدة عن ثقافة المسلمين ، وأن المسلمين لم يكن لهم دور في إقرار قواعد العمل الدبلوماسي. ولا شك إن مثل هذا الادعاء لا يقوى على الصمود أمام الادلة من القرآن والسنة وممارسة سلاطين الدولتين الغزنوية والسلجوقية وتدبيرهم لأمر العلاقات مع غيرهم من خلال سفارات العلماء . فهذا البحث يلقي الضوء على سفارات العلماء ودورها في إقرار العلاقات الدولية القائمة على أساس التعاون .

ومما هو جدير بالذكر فإنه لم يصل إلى علم الباحث من قام بإعداد دراسة مشابهة في بلدان الشرق الإسلامي في فترة البحث وهذا على الرغم من وجود دراسات سابقة في مناطق وأقاليم مختلفة مثل : كتاب «السفارات الإسلامية إلى الدولة البيزنطية سفارات الدول العباسية والفاطمية والأموية في الأندلس» للدكتور سليمان الرحيلي من مطبوعات مكتبة التوبة بالرياض ، وكتاب «السفارات

الإسلامية إلى أوربا في العصور الوسطى» للأستاذ الدكتور إبراهيم العدوي من منشورات دار المعارف بمصر ١٩٥٧م ومن المهم الإشارة أن الكتابين بعيدان عن المنطقة موضوع الدراسة ولذا فيكفي ذكر اسم الكتابين كدراسات سابقة دون التعرض لمضمون هاتين الدراستين .

وقبل أن نشرع في الدراسة ينبغي الإجابة على سؤال افتراضي وهو لماذا العلماء ودورهم في تلك السفارات والإجابة تتمثل في أن دور العلماء لم يكن علميا فقط بل امتد ليكون لهم سياسي واضح فضلًا عن أسباب أخرى ستظهر بوضوح في تلك الدراسة ونتائجها .

يتضمن هذا البحث (سفارات العلماء في العصرين الغزنوى والسلجوقى) دراسات متنوعة ، تتناول عددًا من الموضوعات التي يتم معالجتها ، والتي تلقى أضواءً جديدة على بعض القضايا التاريخية المهمة ، فقد كان لهاتين الدولتين حضارة تتجلى في علاقاتهما السياسية فيما بينهما وبين الدول الأخرى ، وقد توخيت في توجهي في عرض هذا الموضوع الذى اخترته دراسة تحليلية لبعض السفارات التي خرجت من هاتين الدولتين إلى غيرهما من الدول الأخرى ، حيث كانت تؤدى غالبا على مستوى عاليًا من التمثيل الدبلوماسى الحديث ، وأن خالفتها في الشكل والرسوم أحيانا ، كما توخيت قدر الإمكان أن أغلف الموضوعات المطروحة بآرائى كلما كان ذلك متاحًا لضرورة أن تكون الدراسة نقدية .

وقد قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة:

أما التمهيد : فأوردت تعريفًا للمعانى المختلفة للكلمة لغة واصطلاحا ، وفى المبحث الأول قدمت عرضًا تفصيليًا لإجراءات تعيين السفراء ، ومنها صفات السفراء ، مهام السفراء ، امتيازات السفراء وحقوقهم من الاكرام والحصانة ، والاحتفال بالسفراء عند الاستقبال والتوديع.

أما المبحث الثاني فيتناول فيه أنواع السفارات (السفارات الثقافية ، وسفارات

التهنئة والتعزية، وسفارات المصاهرات، والسفارات السياسية والسفارات العسكرية) ثم قدمت نبذة عن ديوان الإنشاء باعتباره مسئولًا عن السياسة الخارجية وصدور الرسائل، وخاتمة.

التمهيد : تعريف السفارات لغة واصطلاحا

للسفارة معان عديدة منها الإصلاح بين القوم، والسفير من سفر بين القوم : إذا انتقل بالسفر وأصلح[١]، ومنها الكشف تقول سفرت بين القوم أي كشفت ما في قلب هذا وقلب هذا لأصلح بينهم[٢]، وسمى السفر سفرًا لأنه يسفر عن وجوه المسافرين وأخلاقهم فيظهر ما كان خافيا منها[٣] والسفير القيم بالامر المصلح له، ومنها السعى والوساطة للإصلاح بين القوم .

والسفرة في القرآن الكريم الكتبة، وأحدهم سافر بمعنى كاتب، وسميت الملائكة سفرة لأنهم يسفرون بين الله وانبيائه وقد سموا سفرة لأنهم ينزلون بوحى من الله وبإذنه وما يقع به الصلح بين الناس، ويصلح شأنهم فشبهوا بالسفراء الذين يصلحون بين الرجلين فيصلح شأنهما والسافر في الأصل : الكاتب سمى به لأنه يبين الشيء ويوضحه . وكَانَ فِي قدرَة الله جلّ وَعلا أَن يلقِي فِي قُلُوب الْأُمَم الْإِيمَان ويوفقهم لما يرضاه من الشَّرَائِع والأديان من غير أَن يبْعَث فيهم الرُّسُل ويعرفهم الْآيَات وَالنّذر، وَلكنه عز وجل لرأفته بهم وإحسانه إِلَيْهِم بعث فيهم من أنفسهم من يخاطبهم بألسنتهم ويهديهم[٤] قَالَ الله تَعَالَى جده : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ

---

[١] ابن منظور : لسان العرب، بيروت ـ دار صادر، ٦: ٣٥.

[٢] الفيومى : المصباح المنير، القاهرة ـ المطبعة العربية الحديثة ١٩٩٣، ١: ٣٧٨، ٣٧٩؛ ابن منظور : المصدر نفسه، ١٨: ٣٧٠.

[٣] ابن منظور : المصدر نفسه، ١٨: ٣٦٨

[٤] ابن الفراء (أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف، المتوفى ٤٥٨هـ) : رسل الملوك =

رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

وقد تعرضت أغلب المصادر التاريخية القديمة للفظ «سفير» و«سفارة» بمعناه المعروف اليوم . إذًا فالسفير يقوم بقطع مسافة لغرض الصلح بين الأشخاص أو القبائل أو الدول أو توصيل رسالة سياسية أو ثقافية أو غيرها ، أو يكشف عن بعض الأمور ويفصح عنها مما هو مدون ضمن هذه الدراسة ، والسفير هو الكاتب والرسول الذي يسعى لإزالة الريب والشكوك بين شخصين أو دولتين في حالة السلم والحرب سواء. وتأتى السفارة بمعنى الرسالة والسفير بمعنى الرسول المصلح بين القوم .

والسفارة اصطلاحا هي عملية الاتصالات الخارجية على اختلاف أنواعها وأشكالها ودرجاتها بواسطة السفراء ويكونون وكلاء وممثلين للمرسل لدى الملك أو الرئيس المرسل إليه في دولة أخرى ويكون نائبًا أو وكيلًا لمرسله ، في كل ما ينسب إليه في توقيع الاتفاقيات والمعاهدات .

ومهمة السفارات إدارة العلاقات بين الدول بالتفاوض والأسلوب لتصحيح وإدارة هذه العلاقات على يد السفراء ، وعرفها قاموس أكسفورد بأنها : علم رعاية العلاقات الدولية بواسطة المفاوضات ، والطريقة التى يتبعها السفراء والممثلون الدبلوماسيون في تحقيق هذه الرعاية[٢].

هذا وقد استعملت كلمتي السفراء والسفارات في صدر الإسلام والعصور التي تلتها ، وهي بمجموعها تشير إلى إرسال السفراء والرسل وانطلاقهم وتوجههم إلى

= ومن يصلح للرسالة والسفارة ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، بيروت ـ دار الكتاب الجديد ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م ، ٢٨.

(١) التوبة:١٢٨

(2) *The Oxford English Dictionary*. vol. 111, DE Oxford, 1933, p.385.

جهات معينة للقيام بمهام مخصوصة من التوسط والسعي للإصلاح أو نقل الأخبار ، أو عقد هدنة ، أو صلح ، أو إعلان حرب أو استنفار جيوش ، أو مغادرة أسرى ، أو سعى في زواج أو تقديم هدايا أو حضور واجب عزاء لأحد الكبار وتنتهي هذه السفارات في الأغلب الأعم بانتهاء مهماتهم .

ومن ثم فالسفارة في أرفع صورها هي فن تطبيق الكياسة والذكاء وسعة الحيلة على أسلوب تسيير دفة العلاقات الرسمية بين الدول ، ومن أهداف السفارات تحقيق المنفعة بالتراضى والحلول السلمية المقبولة للطرفين[١].

المبحث الأول : إجراءات تعيين السفراء

اتبعت الدولتان الغزنوية و السلجوقية سياسات وإجراءات واضحة في تعيين وإرسال واستقبال السفراء مراسم تكاد تتفق مع ما يجرى عليه العمل في الدول الحديثة ، وهو أمر جدير بالتسجيل والتقدير[٢] ، فمهمة السفير مهمة خطيرة ودقيقة في الوقت نفسه ، ولذلك فان اختيار السفير يتسم دائما بالتدقيق ويتطلب شروطا معينة ، فلا يختار للسفارة إلا القادر الكفء الذى يستطيع أداء الرسالة المطلوبة منه على أكمل وجه ، ومن ثم كان السفير يختار ممن تتوافر فيهم الحكمة والبلاغة والاتزان ويكون عادة من رجال الفكر[٣] ، لذلك كان هذا البحث يركز بصفة خاصة على العلماء الذين يقومون بدور السفراء ، وكان يشرف السلطان على اختيار السفير بنفسه ممن يرشحهم له صاحب ديوان الرسائل ، مثلما حدث مع القاضى أبى نصر الصينى الذى كان من دهاة الرجال ، وكان يجمع ـ بالإضافة إلى الفضل ـ حسن التدبير والحيلة والمكر ، ارسله السلطان مسعود الغزنوي إلى

---

(١) محمود سمير أحمد : الدبلوماسية ، القاهرة ـ مطابع الأهرام ، ١٧.

(٢) محمد التابعى : السفارات في الاسلام ، القاهرة ـ مطبعة أطلس ١٩٨٨، ٩٨.

(٣) محمد التابعى : المرجع نفسه ، ٨٥

السلاجقة ليستطلع أمرهم[١] . وكذلك عندما وقع الاختيار على عبد السلام رئيس ديوان بلخ ، وكان له سابقة في السفارة ليذهب إلى على تكين في السفارة الموكلة إليه[٢].

وقد حرص الحكام على تزويد سفرائهم بوثائق عرفت باسم التذاكر ، وتتضمن أسماءهم وصفاتهم وطبيعة مهماتهم. وهي تشبة في أيامنا جوازات السفر وأوراق الاعتماد ، حيث تسهل عملية انتقال السفراء كما يقدمونها إلى الحكام المبعوثين إليهم ، وكان يكتبها كاتب خاص بديوان الإنشاء بحيث تصدر بأسلوب بليغ وخط جميل يليقان بمقام المراسلة ومهام السفراء[٣].

ويلاحظ أن حكام الدولتين الغزنوية والسلجوقية لم ينسوا الجانب النفسى الخاص بمزاج الحاكم حتى يختاروا له السفير الذي يستطيع أن يتلاءم معه. وبالتالي يفيد منه أكبر فائدة لمصلحة العلاقات بين البلدين. ومما يؤكد ذلك تلك السفارة التى قام بها الإمام أبو صادق التبانى من قبل السلطان مسعود إلى بغراخان القراخانى لتصفية العلاقات بين الطرفين وكان لهذا العالم مكانة مرموقة لدى القراخانيين ، وكان اختيارًا موفقا لما أسفرت عنه تلك السفارة من نجاح[٤].

صفات السفراء

لقد حدد رسول الله ﷺ صفات السفراء عندما قال ﷺ يستحب أن يكون الرسول الذي يرسل إليه حسن الوجه حسن الاسم وكان يقول : «إذا أبردتم إلى

---

(١) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ، القاهرة ـ دار الطباعة الحديثة ، ٥٢٩.

(٢) البيهقى : المصدر نفسه ، ٥٥١.

(٣) عطا محمد صالح زهرة : في النظرية الدبلوماسية ، ٥٧-٥٨.

(٤) البيهقى : المصدر نفسه ، ٥٧٢-٥٧٤.

بريدا فليكن حسن الوجه حسن الاسم»[١] حقا فقد صدق رسول الله فيما قال. فلا شيء يجذب العين كالمظهر الخارجى ، وقد أدرك العرب ذلك فقال ابن الفراء : «يستحب في الرسول تمام القد واعتدال الطول وعبالة الجسم ـ الضخامة وامتلاء الجسم ـ ، وأن لا يكون قميئًا ولا ضئيلًا وإن كان المرء بأصغريه ، ومخبوء تحت لسانه ، ولكن الصورة تسبق اللسان والجثمان يستر الجنان»[٢].

وأن يكون السفير من ذوي النطق الحسن ، وجهارة الصوت ، والوسامة والقامة وأن يكون حسن الوجه والاسم والكنية واللقب. فضلًا عن حسن الرداء. وقد قال عمر بن الخطاب في هذا الصدد : يؤذن لكم فيقدم أحسنكم اسما ، فإذا دخلتم قدمنا أحسنكم وجهًا ، فإذا نطقتم ميزتكم ألسنتكم[٣] ، فضلًا عن التصرف بحكمة ، وعدم الاستبداد بالرأى ، وقد قال حكيم العرب في هذا الصدد البيت التالى:

إذا كنت في حاجة مرسلًا فأرسل حكيما ولا توصه[٤]

ولعل من أبلغ ما كتب في هذا الشأن ما أورده ابن الفراء على لسان أحد الحكماء: اختر لنفسك في هدنتك وصلحك ومناظرتك والنيابة عنك رجلا حصيفًا بليغًا ، قليل الغفلة ، ينتهز الفرصة ، ذا رأى جزل وقول فصل ، ولسان سليط وقلب حديد ، فطنا للطائف التدبير ، ومستغلًا لما ترجو أو تحاول بالحزامة

---

(١) ابن قيم الجوزية (شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ، المتوفى ٧٥١هـ):روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، بيروت ـ دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ٢٢٣، ٢٢٤.

(٢) ابن الفراء: رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ، ١٩٤٧م ، ٢٠.

(٣) ابن الفراء: المصدر نفسه ، ٢٠.

(٤) البيهقى : كتاب المحاسن والمساوئ ، تصحيح السيد محمد بدر الدين النعسانى الحلبي ، القاهرة ـ مطبعة السعادة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م ، ١٦٩.

وإصابة الرأي. ومعقبًا بالحذر والتمييز، ساميًا إلى ما يستدعيه إليك ويستدفعه عنك... وليكن من أهل البيوتات والشرف، ذا همة عالية[١].

وقد قَالَ الْحُكَمَاء في هذا الصدد ثَلَاثَة تدل على ثَلَاثَة الْهَدِيَّة على الْمهْدي وَالْكتاب على الْكَاتِب وَالرَّسُول على الْمُرْسل. وَقَالُوا: رَسُول الرجل مَكَان رَأْيه، كتابه مَكَان عقله. وَقَالَ الشَّاعِر:

(تخير رَسُولك إِن الرَّسُول يدل على عقل من أرْسلهُ)
(تَرَاهُ إِذا كَانَ ذَا حِكْمَة يبلغ أحسن مَا حمله)
(فيبرم منتقضات الْأُمُور وَيفتح أَبْوَابهَا المقفله)
(وَيرجع إِن كَانَ ذَا غرَّة عَلَيْهِ الأمور الَّتِي هن لَهُ)[٢]

وبمطابقة الصفات العامة التى تتطلبها الدبلوماسية الإسلامية في سفيرها، وبين ما هو جار في الوقت الحاضر يتبين لنا أن الإسلام سبق بكثير الصفات التى يجب توافرها في السفير المعاصر. بل إن ما اشترطه الإسلام لاختيار السفير، مازال مُطبقا بحذافيره حتى الآن رغم تغير الظروف وتقدم الزمن، ومنها كما سبق ذكره أن يكون السفير وسيمًا جسيمًا يملأ العيون المشوقة إليه فلا تقتحمه، ويشرف على تلك الخلق المتصدية له فلا تستصغره «فالنفس الإنسانية مطبوعة على تعظيم الجمال مضطرة على تكريمه، ففى جمال الزي والجسم سحر يبهر النفوس»[٣]، ومع ذلك لا يمكن أن يكون المظهر والملبس هو كل شيء، إنما يجب أن يتحلى السفير بجانب ذلك بصفات أخرى مكملة للصفة الأولى، وقد اشترطت الدول الإسلامية في السفير صفات خلقية منها: أن يكون على درجة عالية من سداد

---

(١) ابن الفراء: المصدر نفسه، ١٠.

(٢) المصدر نفسه، ٣٨.

(٣) محمد التابعي: الدبلوماسية في الإسلام، ٥٦، ٥٧.

الرأى ونفاذ البصيرة وحصافة العقل وألا يخلو من الجراة والإقدام ، وأن يتحلى بالفصاحة والقدرة على فهم الإيماءة حتى يدرك الحجة قبل المنطق ؛ فاللباقة وسرعة البديهة من الأمور الضرورية وعلى السفير توقى الأمانة في كل تصرفاته وأعماله مع عدم المبالغة في نقل الأخبار ، فضلًا عن الثقافة العامة ؛ ليتمكن من التكلم في أي موضوع إذا اضطر إلى ذلك ، ولذلك قالوا : «ينبغي أن يجمع السفير بين الفرائض والسنن والأحكام والسير ليحتذى فعل سلفه فيما يورده ويصوره وأن يعلم أصول الخراج والحسابات وسائر الأعمال ليناظر كل بحسب ما يراه من صوابه وخطئه»[١] ، ومن ذلك يجب أن يتحلى بعلم واسع كما قال الشعبى : «العلم أكثر من أن يحصى ، فخذ من كل شيء أحسنه».

هكذا يتضح تطابق هذه الصفات التي ذُكرت على سفراء الدولتين الغزنوية والسلجوقية فعلى سبيل المثال لا الحصر كان الإمام أبو صادق التبانى يتحلى بالصدق والأمانة والفطنة واللباقة وفن الإقناع حتى إن حكام الدولة المرسل إليها ـ القراخانيون ـ قد أقروا جميعا أنهم لم يروا كمثله أحدًا في ذلك [٢] . كما كان أبو طالب التباني من أعاظم التبانيين فريدًا في الفضل والعلم والورع ، إلى جانب ما كان عليه من بهاء الطلعة واعتدال القامة ، وكان ذا خط جميل وإنشاء انيق[٣].

هكذا يتبين مما سبق كيف كان اهتمام حكام الدولتين الغزنوية والسلجوقية بطريقة اختيار السفراء ، وما يجب توافره في شخصهم تحقيقا لنظم مهاتهم. وأن المتطلبات التى يطلبونها في السفير تشبه إلى حد كبير ما يجرى عليه العمل في العصور الحديثة.

---

[١] المرجع نفسه ، ٥٩ـ٦١ .

[٢] البيهقى : تاريخ البيهقى ، ٥٧٢ـ٥٧٤ .

[٣] المصدر نفسه ، ٢١١ـ٢١٢ .

مهام السفراء

ومن أهم مهام السفراء في الماضي والحاضر متابعة الاحداث وما يجرى داخل البلد المرسل إليها ، وكان السفراء المسلمون يزودون عادة بتعليمات سرية تتطلب منهم التعرف على حقيقة الأوضاع ، وحقيقة نوايا العدو . فقد كتب الوزير السلجوقي نظام الملك في كتابه «سياست نامه» موضحا هذه المهام فقال : «يجب أن يعلم الملوك بإرسالهم السفراء لا يقصدون تسليم رسالة أو نقل سفارة فقط ، بل هناك مئات الأغراض يبغونها فهم في الحقيقة يريدون أن يعلموا حالة الطريق. ويعلموا إن كانت معبدة تستطيع أن تمر بها ، والأمكنة التى لا توجد فيها المروج والاعشاب والحشائش والطرق والأمكنة التى يوجد فيها ذلك ، وأن يعلموا أيضا قوة الجيش ومؤونته في العدد والعتاد وفى الدفاع والهجوم ، وأن يعرفوا كيف يعيش الأمير وماذا يأكل وبمن يجتمع ، وأن يدركوا تنظيمات بلاطه وعاداته وأخلاقه في عدله وظلمه وسهره وتبذله وكرمه ورقته ، وهل متعلم أو جاهل ، وهل ازدهرت مملكته بالعمران أو ملأتها الخرائب والاطلال ، وهل رضي عنه جنده أم هم مغمضون مغيظون ، وهل هو بخيل أو جواد ، ووزيره قدير أو عاجز وحاشيته من العلماء الأذكياء أو لا ، ثم هم يريدون أن يعلموا ماذا يجب وماذا ينبغي ، وأن يعلموا ما شأنه إذا شرب الخمر ، وهل يميل إلى الحب والنساء وحتى إذا رغبوا في مهاجمة مملكته في يوم ما أو أرادوا تقصى خططه أو نقد عيوبه كانوا مطلعين ومدركين يضعون المحاسن والمساؤى نصب أعينهم وينهجون بحسبها»[1].

هذه التعليمات جاءت في شكل نقاط محددة ، والإجابة عنها تعطى صورة محددة واضحة بحيث يكون لدى الدولة المرسلة فكرة كاملة شاملة تفيد في

---

(١) نظام الملك : سياست نامه ، ترجمة السيد محمد العزاوى ، القاهرة ١٩٧٥م ، ٤٤٦.

تخطيط سياسة الدولة في السلم والحرب على السواء. ومما يؤكد ذلك موقف أهل الرى من سفير أحد زعماء آل بويه الذى جاء لإثارة الفتنة في البلاد ، فأخذوا يعدون العدة ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع ذهبوا بالسفير إلى ظاهر المدينة حيث أوقفوه على ربوة وأقبل حاكم المدينة حسن سليمان بخيله المسومة ومر به ومن ورائه أهل المدينة أكثر من عشرة آلاف رجل بأتم السلاح ، وقالوا للسفير : ليس لصاحبك أو لمن يأتى إلى هنا دون أمر سلطاننا مسعود الغزنوى سوى حد السيف وطعن الرماح ، فعد واخبر صاحبك بما سمعت وصف ما رأيت من غير نقصان فوعدهم السفير بتحقيق مطلبهم فأثابوه ، ومضى إلى سبيله فأخبر بما رأى[١].

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما قاله نظام الملك : إنه أرسل شمس الملك حاكم سمرقند سفيرًا من كبار الفقهاء إلى دولة السلاجقة ليستطلع أمرها ، ولما رجع إليه الرسول أخبره بأن دولة السلاجقة دولة قوية ، ولكن بها عيب وهو أن وزير سلطانها رافضى[٢]. وعرف ذلك من الخاتم الذى كان يلبسه نظام الملك في إصبع يمناه[٣] ، ويحكى نظام الملك أنه كتب إلى أن اشتر الفقيه من فوره «لقد انبسط اللسان في شأنك هنا أمام شمس الملك وكتبت لك هذا لتكون على علم» ، فقلت ، من خشية السلطان وقلت في نفسى : إنه ليضيق بالمذهب الشافعي صدرًا ، وإن سمع أن القراخانيين وصمونى بأنني رافضى ، وأنهم قالوا ذلك أمام

---

(١) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ٣٩-٤٠.

(٢) الرافضة : هم الذين يتبرؤون من أصحاب النبى ﷺ ويسبونهم وينتقصونهم ، ويكفرون الأئمة الأربعة على وعمار والمقداد وسلمان. أبو الحسين محمد بن أبى يعلى : طبقات الحنابلة ، تعليق محمد حامد الفقى ، القاهرة ـ مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٢م ، ١: ٣٣.

(٣) يقول نظام الملك : كان هذا الخاتم رهنا عندما غلبت أحد الأشخاص في الشطرنج ، ولعل سفير شمس الملك توهم أن الخاتم من طين أبيض كتب عليه اسم الإمام إسماعيل كتلك التى يسلكها دعاة الإسماعيلية في أصابع من ينتمون إلى مذهبهم . نظام الملك : المصدر نفسه ، ١٣٢.

خان سمرقند : «ما أمنني على نفسى ، فأنفقت ثلاثين ألف دينار ذهبا حتى لا يبلغ هذا القول مسمع السلطان»[١]. حيث كان العداء والخصومة على أشدهما بين السنة والشيعة آنذاك. ويستخلص من هذه القصة التى ذُكرت مدى ما كان يتمتع به هذا السفير من دقة وقوة ملاحظة.

وكذلك تلك السفارة التى قام بها الفقيه أبو الحسن الطبري الذى أرسله السلطان بركياروق السلجوقي إلى السلطان إبراهيم بن مسعود بن محمود الغزنوى في سنة ٤٩٢هـ /١٠٩٨م في رسالة لتدعيم الصداقة بينهما ، فرأى في مملكته مالا يتأتى وصفه[٢] ووصف ذلك قائلا : «فدخلت عليه وهو جالس في طارمة ضخمة بقدر رواق المدرسة ، وفوق ذلك إلى السقف صفائح الذهب الأحمر ، وعلى باب الطارمة الستور التنيسى ، وللمكان شعاع يأخذ البصر عند طلوع الشمس عليه ، وكان تحته سرير مطعم بصفائح الذهب وحواليه التماثيل المرصعة من الجواهر واليواقيت ، فسلمت عليه وتركت بين يديه هدية كانت معى ، فقال : نتبرك بهدية العلماء ثم أمر خادمه أن يطوف بى في داره فدخلنا إلى خاركاه عظيمة فيها من الذهب واليواقيت شئ كثير وسطها سرير من العود الهندى وتمثال طيور بحركات إذا جلس الملك صفقت بأجنحتها إلى غير ذلك من العجائب فلما عدت رويت له الخبر ، كما أنه كان لا يبنى لنفسه منزلا حتى يبنى لله مسجدًا أو مدرسة»[٣].

وفي صدد الكلام عن مهام السفراء لابد ان يُضع في الحسبان أن الغاية القصوى من السفارات تتمثل في فض النزاعات بالتراضي والحلول السلمية المقبولة للطرفين ،

---

(١) نظام الملك : المصدر نفسه ، ١٣٢.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٩٩٢، ٥: ١٦٢.

(٣) ابن الجوزى : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، الدكن ـ مطبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م، ٩: ١٠٩ـ١١٠ .

وهنا لم يقف العلماء السفراء موقف المتفرج حيال الصراعات الدامية التى كانت تهدد كيان الدولة الإسلامية ، وانما كان لهم دور كبير في فض كثير من النزاعات القائمة بين الحكام والملوك في بعض البلدان الإسلامية حرصا على تماسك المسلمين ووحدتهم ، ويخص بالذكر العالم الجليل الكيا الهراسى مدرس النظامية الذى نجح بالفعل في الصلح بين السلطان ملكشاه بن بركياروق وعمه السلطان محمد السلجوقي عام٤٩٨هـ/١١٠٤م[١].

ولم تكن مهمة السفارات دائمية كما هي عليه الأن ، وانما كانت مؤقتة تنتهي بانتهاء الرسالة الموكول إلى السفير نقلها ، وهم بذلك أشبه بالسفراء فوق العادة ، ولعل هذا ما يبرره لأن ظروف العصر كانت تقتضى ذلك لصعوبة المواصلات وسوء حال الطرق وبدائية وسائل النقل ، ومن ثم فالدول لم تكن تهتم إلا بالدول المجاورة ذات المصالح المرتبطة معها ، والتي تتصل بها تجاريا أو تؤثر على وجودها كدولة مستقلة. وشيئًا فشيئًا اتسع نطاق العلاقات وتشابكت ، فزاد اهتمام الدول بجيرانها والدول الأخرى المتصلة بها وبالتالي زادت المهام الملقاة على عاتق السفراء[٢].

على أن بعض السفارات الإسلامية كانت تستغرق وقتًا طويلًا ، يمتد إلى سنة وأكثر ، مثلما حدث مع السفيرين أبو القاسم الحصيري والقاضي أبى طاهر التباني ، اللذان استغرقت سفارتهما أربع سنوات[٣] ، وهذا يشبه إلى حد كبير مع ما هو سائد في الوقت الحاضر حيث يستمر السفير في موقعه مدة سنتين في بعض الأحوال ، في حين تأخذ بعض الدول بمبدأ عدم جواز بقاء السفير لمدة طويلة حتى

---

(١) آسيا نقلى : دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأقصى في الجهاد ضد الصلبيين ، الرياض ٢٠٠٢، ٨٣.

(٢) محمد التابعي : السفارات في الإسلام ، ١١١.

(٣) البيهقي : تاريخ البيهقي ، ٤٥٠-٤٥١.

تكون تقاريره محايدة؛ لأن طول مدة الخدمة يؤدى في النهاية إلى تكوين صداقات مما قد يؤثر على اتجاهاته ، وبالتالي حيدة تقاريره. هذا وقد أجاز بعض الفقهاء عقد الأمان للسفير مطلقا دون تحديد مدة معينة. وقد أجاز الحنفية والشافعية تجديد الأمان سنة بعد أخرى بحسب ما تقتضيه مصالح العمل. وعقد الأمان هذا هو التصريح له بالبقاء ، وأداء الوظيفة في حرية شبيهه بالحصانات الدبلوماسية التى تمنح للسفير[١].

وكانت السفارة تتألف عادة من السفير وحاشيته ، وهؤلاء يكونون أعضاء في البعثة ، وكان السفير يتكلم باسم الخليفة والملوك والسلاطين. أما عدد أعضاء البعثة فقد كان يختلف من سفارة إلى أخرى حسب أهمية العمل وحجمه وحسب قدر السفير والدولة المبعوث إليها[٢].

وكان يتولى أمر السفراء رجل يدعى القائم بأمر السفراء[٣] والموكل بالضيافة وهو المسئول عن استقبال السفراء[٤].

امتيازات السفراء وحقوقهم من الإكرام والحصانة

كان يحوط عمل السفراء من احترام ورعاية وتسهيلات لازمة لآدائهم لمهامهم على اعتبار ان السفير يمثل شخص رئيس دولته الذى أوفده ، ومن ثم رأت الدول في معاملاتها أن تكريم هذا السفير وإحاطته بالرعاية والحماية لشخصه ومقر إقامته ، إنما يعتبر تكريما لحاكم الدولة الموفدة. وبالتالى فإن من مصلحة حاكم الدولة المضيفة بالمثل أن يحظى ممثلوه إلى الدول الأخرى بنفس الرعاية والحماية والتكريم

---

(١) محمد التابعى : المرجع نفسه ، ٨١.

(٢) المرجع نفسه ، ٨٥.

(٣) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ٤٥٢.

(٤) المصدر نفسه ، ٥٤٨.

وفقا لمبدأ المعاملة بالمثل[١].

وخلال فترة البحث كان يبالغ في تكريم السفراء فتقام لهم الدعوات والولائم ويقدم لهم الهدايا والخلع ، ومن الأمور المهمة أن السفراء كانوا يتمتعون بما نسميه اليوم بالحصانة وهي أن الرسل لا يجوز قتلهم لأى سبب من الأسباب ولا يؤذون. وكان السفراء أحرار في عبادتهم لا يتعرض لشعائرهم بسوء . وقد أقر الإسلام حرمة السفراء وكان للرسول ﷺ الريادة في معاملة الرسل واستقبالهم بالتجلة والاحترام ، فحرمة الرسل منصوص عليه في القرآن فيقول عز من قال : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[٢] .

وقد اتفق الرأى لدى الحنفية والشافعية والحنابلة على أن الرسل لا تقتل لأن أمان الرسل والسفراء ثابت بدون عقد للامان فقد قال ﷺ : «لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده» ، لكن هذا لم يمنع تكرار خرق هذه القواعد من جانب أو أخر طوال فترة البحث مثلما حدث مع التاهرتى سفير الدولة الفاطمية لدى السلطان محمود الغزنوى وسيأتى ذكره بالتفصيل في موضعه إن شاء الله تعالى .

الاحتفال بالسفراء عند الاستقبال والتوديع

اهتم المسلمون بعملية استقبال السفراء وعاملوهم بكيفية ترقى إلى حد كبير إلى المستوى الذى تطبقه الدول الحديثة سواء فيما يتعلق بمراسم الاستقبال أو التوديع[٣].

---

(١) محمود سمير أحمد : الدبلوماسية ، ٢٤.

(٢) التوبة: ٦.

(٣) عطا محمد صالح زهرة : في النظرية الدبلوماسية ، ٥٨.

فعند الاستقبال يظهر من تتبع أخبار السفارات أن الطرفين كانوا يستعدون لاستقبال السفراء استعدادا كبيرا فكانوا يتلقونهم بالإجلال والتكرم إكراما لمن أرسلهم وكانوا يعمدون في إظهار معالم الزينة والأبهة ، والغنى والترف ليبهروا بها السفراء الواردين عليهم ، ولينقلوا ذلك إلى ملوكهم وبلادهم. وخير مثال على ذلك أنه عندما جاءت الأخبار بوصول الفقيه أبي بكر السليمانى سفير الخليفة القادر بالله لدى السلطان مسعود الغزنوى ، أقاموا الزينات والمهرجانات وزينوا المدينة بصورة لم يسبق لها مثيل ليعلم رسول الخليفة حال هذا البلد ، واتصلت محافل الطرب وسرادقات الانس والمباهج من أبواب المدينة حتى السوق ، قوسًا بعد قوس وقبة وراء قبة ، ومنه إلى مبنى مسجد الجمعة الذى أعد خصيصا لنزول السفير وبعد أن تمت هذه الترتيبات ، وجاء النبأ بأن السفير على مسيرة فرسخين من المدينة،خرج رجال الحاشية لاستقباله وركب جميع العسكر وتقدموا في موكب عظيم وأبهة فائقة ، وأمامهم السبهسالار ومن بعدهم جماعات القضاة والسادة والعلماء والفقهاء ثم انزلوا السفير في البيت المعد لضيافته ، وكان الناس ينثرون على الموكب الدراهم والدنانير والسكر وغيرها ، في حين كان أهل الطرب والمجون يبدون العجائب من فنونهم. وبعد ان استقر بالسفير المقام ، أمر الموكل بالضيافة بمد السماط وكان فيه ما تشتهيه الانفس مما لذ وطاب[1].

وعند توديع السفير السليمانى أُنعم عليه بخلعة فاخرة مما يخلع على الفقهاء في نسيجها خمسمائة مثقال من الذهب كما منح بغلة ورأسين من الخيل ، وأرسل للخليفة مائة حلة من شتى الأنواع وكلها ثمينة بينها عشرة منسوجة بالذهب مملوء باللؤلؤ ثم عشر قطع من الياقوت وعشرون قطعة نفيسة جدا وعشرة رؤوس من

---

[1] البيهقى : تاريخ البيهقى ، ٤٣.

خيل خراسان الختلية بسروج وبراقع من ديباج وخمسة من غلمان الأتراك الممتازين[١].

ولما ركب السفير استعدادًا للرحيل حملوا إليه في أثره كل ما كان من الهدايا باسم الخليفة ومعها مائة ألف درهم صلة للسفير نفسه وعشرون حلة ثمينة ، كما أهدى الأستاذ السفير خمسمائة دينار وعشر قطع من الألبسة وبعث إليه جواب الرسالة مع الموكل بالضيافة وغادر السفير مدينة بلخ ، وقد أرسلوا معه خمسة من السعادة على أن يعود ثلاثة منهم واحد بعد الأخر في أثناء الطريق حاملين كل ما يستجد من الأخبار ، وأن يعود الأخران من بغداد ليذكروا كل ما جرى ، كما دسوا بين الرجالة والسواس رجلًا من العيون يسير متنكرا لينهى كل ما يرى قل أو كثر إلى السلطان على يد هؤلاء السعادة[٢].

المبحث الثانى : أنواع السفارات

ويتناول أنواع السفارات وسنبدأ بالسفارات الثقافية لأنها ترمز إلى رقى تلك الدول ومكانتها في العالم .

السفارات الثقافية

إن الاهتمام بالسفارات الثقافية جاء نتيجة تطور الفكر الإسلامى والاهتمام بالثقافة ، فهى دليل النضج السياسي والدبلوماسي ، ففى الوقت الحاضر تهتم الدول اهتماما بالعلاقات الثقافية. وتعمل على تطويرها ، وتبادل المعلومات والأساتذة والطلاب. وفى كل سفارة توجد قسم للعلاقات الثقافية ، فالعلاقات الثقافية تعتبر مدخلًا للعلاقات السياسية والاقتصادية ، وقد سبقت الدولة الإسلامية دول العالم

---

[١] البيهقى : المصدر نفسه ، ٣٢٢-٣٢٣.

[٢] البيهقى : المصدر نفسه ، ٣٢٤.

الحديث في إضفاء أهمية خاصة على العلاقات الثقافية.

ومن أهم أهداف السفارات الثقافية خلال فترة البحث تبادل المعرفة ونقل ثمار العلوم والإفادة بالنهضة في الدول الأخرى وتبادل الأساتذة وإعطاء المنح وتشجيع البحث، حقا فالثقافة مدخلًا لتقوية العلاقات والتواصل بين الشعوب.

وقد أسهم حكام الدولة الغزنوية في تشجيع الحركة العلمية، أخص بالذكر السلطان محمود الغزنوى الذي بلغ اهتمامه بالعلم أن التف حوله كثير من علماء الدين وتنافس أصحاب الفرق والمذاهب على كسبه لاعتقادهم أنه إذا اعتنق مذهبًا ساد هذا المذهب كل الأقاليم الواسعة التي فتحها. ولما وجد الفاطميون في مصر ما يلاقيه أنصارهم من الإسماعيلية من اضطهاد في بلاد المشرق على يد محمود الغزنوى، عملوا على استمالته إليهم، لكنهم لم يستطيعوا تحقيق مآربهم. وسأعطى نبذة عن تلك المحاولات:

أولها سفارة الخليفة الحاكم بأمر الله، فقد ذكر العتبى محاولته اجتذاب السلطان محمود الغزنوى إلى دعوته فيقول: إن داعية فاطميا يدعى عبد الله بن على العلوى التاهرتى[1]، جاء من العراق رسولًا من الخليفة الفاطمى قاصدا محمود، وكان يدعى انتسابه إلى العلويين ويحمل معه كتابًا به نسبه العلوى الشريف وتصانيف تحمل آراء الباطنية، وقد حرص السلطان على نفى كل صلة بالفاطميين، فرفض مقابلة هذا الداعية، كما رفض تسلم رسالته سرًا كما أراد مرسلها حتى لا يتوهم أحد أنه له اتصالًا سريًا بالفاطميين في مصر، وأمر التاهرتي بإعلان رسالته على الملأ. كما حرص السلطان محمود على إثبات بطلان كل ما

---

[1] وكان التاهرتي أحد الدعاة الفاطميين الكبار اللذين عاصروا الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، وهو من مدينة تاهرت في المغرب، وله العديد من المؤلفات، وقد هاجر من المغرب إلي القاهرة حيث عهد إليه القيام بالدعوة وهي مرتبة لا يصل إليها إلا من كان علي جانب كبير من الثقافة. عارف تامر: تاريخ الإسماعيلية، «الدولة الفاطمية الكبرى» لندن ـ قبرص، ١٩٩١، ٣: ١٠٨.

يدعيه التاهرتى من نسب ومن صحة معتقد ؛ فأرسل إليه عالمًا يسمى الأستاذ أبو بكر بن محمد بن محمشاد الكرامى ليناظره ، فأثبت بطلان دعوته وفساد عقيدته ، وأرسل إليه أحد أعيان الدولة من الطالبيين ـ وهو الحسن بن طاهر بن مسلم ـ فجادل التاهرتى في نسبه ، وأعلن كذب انتمائه للعلويين وبذلك حقت الكلمة ـ في نظر السلطان ـ على هذا التاهرتى وحكم عليه العلوي المذكور فقام إلى جيده بضربة اغرقته في دم وريده فقتله[١] وأهدى السلطان بغلته إلى القاضى الفقيه الشافعى محمد بن محمد بن عبد الله الهروي وقال له : كان يركبها رأس الملحدين ، فالأن يركبها رأس الموحدين[٢]. وكان السلطان محمود مدفوعًا إلى هذا التصرف بتوجيهات من الخليفة القادر الذى كتب إليه مبينًا ما يقتضيه الدين من التصلب في أمر هذا التاهرتى ، فنفذ السلطان هذه التوجيهات ، وكتب إلى مجلس الخلافة بصورة ما حدث[٣] .

وقد تلتها إرسال الخليفة الظاهر لدين الله العبيدى كتابا وخلعًا إلى محمود الغزنوى يدعوه إلى طاعته ، وأن يخطب باسمه بتلك البلاد. وسبب ذلك محاولته

---

(١) العتبى : تاريخ اليمينى على هامش الفتح الوهبى على تاريخ ابى نصر العتبى للشيخ أحمد بن على بن عمر المنينى الدمشقى ، المطبعة الوهيبيه ١٢٨٦هـ ، ٢: ٢٤٤ـ٢٥٠. حمد الله المستوفى : تاريخ كزيدة ، ترجمة محمود مرسى قشطة ، رسالة ماجستير بآداب عين شمس ، ١٩٦٨م ، ٣٨.

(٢) الدهبى : سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الارنؤوط ، محمد نعيم العرقسوسى ، بيروت – مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٣، ١٧: ٤٨٦؛ السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود محمد الطناجى وعبد الفتاح محمد الحلو ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م ، ٥: ٣١٩، ٣٢٠.

(٣) العتبى : المصدر نفسه ، ٢: ٢٥٠؛ نظام الدين أحمد بخشى الهروى : طبقات الكبرى ، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلى بعنوان «المسلمون في الهند من الفتح العربى إلى الاستعمار البريطانى» ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥، ١: ٢٨. صادق نشآت ، محمد عبد المنعم الشرقاوى ، أحمد محمود الساداتى : مراكز النهضة الثقافية في الدول المستقلة ، مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية ١٩٦١م ، ٣٧.

النجاح فيما فشل فيه والده الحاكم بأمر الله قبل ذلك ، ومات الحاكم وفى قلبه من ذلك أمور ، فلما علم الظاهر بما كان والده الحاكم عزم عليه من أمر محمود أخذ هو أيضا في ذلك وكاتب محمود ، فلم يلتفت محمود لكتابه وبعث به وبالخلع إلى الخليفة القادر مع الإمام أبى العباس أحمد بن محمد الرشيدى الملقب زين القضاة فجمع الخليفة القادر بالله القضاة والشهود والفقهاء وأحضر أبو العباس ما كان حمله صاحب مصر وأدى رسالة السلطان محمود التى كانت تتضمن أنه الخادم المخلص الذى يرى الطاعة فرضا ويبرأ من كل ما يخالف الدولة العباسية[١].

ومع ذلك لم ييأس الخليفة الفاطمى الظاهر لدين الله فحاول جذب السلطان محمود بوسائل أخرى منها جذب بعض رجاله بالخلع والهدايا ، ومن أشهرهم حسنك الذى قبل خلع وصلة الخليفة الفاطمى أثناء حجه[٢] ، وعندما وصل الحجاج بغداد استنكر الخليفة العباسى القادر اخذهم خلع الفاطميين وأمر بجمع هذه الثياب وإحراقها[٣].

فقد كان للعقيدة الدينية والاتجاهات المذهبية أثر كبير في سياسة الغزنويين ، وقد تجلت هذه الحقيقة بوضوح في علاقاتهم بالخلافة العباسية والفاطمية واهتمامهم بالقضاء على المذاهب المخالفة لمذهبهم ، وفى حرصهم على إبراز الواجهة الدينية لفتوحاتهم في الهند وغيرها وفى رعايتهم لعلوم الدين ورجاله . وفى ضوء ذلك يمكن تفسير كثيرًا من مواقف الغزنويين واتجاهاتهم السياسية .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٩٨، ٨: ١٥٣؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ٤: ٢٥١؛ ابن الجوزى : المنتظم ، ٨: ٢١-٢٢.

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ، ١٩٩٦، ٢: ١٣٧، ١٣٨ .

(٣) خواندمر : روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفا ، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلى ، القاهرة ـ الدار المصرية للكتاب ١٩٨٨، ٢٢٦.

ويتضح مما سبق أن الدولة الفاطمية قد تميزت باستخدام دبلوماسية الدعاية ، وهي التى قامت عليها الدولة فكانت الدعوة ونشر العقيدة أو المذهب الشيعى هو الأساس الأول الذى تميزت به الدولة فاستطاعت أن تكسب الأنصار بلا حرب ودون استعمال القوة رغم ما لاقته من عنت المعارضة[١]. بيد أن الدولة الفاطمية لم تأخذ في الاعتبار أن إقامة العلاقات بين الدول يتم بالرضى والاتفاق المتبادل لا يكفى وجود الاستقلال ، بل يجب أن يكون هناك قبول واعتراف بالدولة ، وهذا يفسر ما حدث مع السلطان محمود والداعية التاهرتى فهو لم يعترف بالدولة ولا بسفيرها . وبالتالى كان فشل هذه السفارة طبيعيا . وهو ما يؤكد على أن نظم تعيين السفراء والسفارات أقدم من فترة الدراسة .

وفى الدولة السلجوقية كان الوزير نظام الملك يهتم بالعلم وكان بابه مجمع الفصحاء ، وملجأ العلماء وكان ناقدًا بصيرًا ينقب عن أحوال كل منهم ، فمن رأى فيه صلاحية الولاية ولاه. ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ، ورتب له ما يكفيه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره وتدريسه. وكان نظام الملك يختبر معلوماتهم خلال المناظرات التي كان يعقدها في المناسبات المختلفة ، ويلقى عليهم أسئلة ، فإذا لمس في أحدهم علمًا وذكاء عينه في الحال ، وإذا صدر الأمر بالتعيين سار المدرس إلى الجهة التى اختير لها[٢]. فإذا كان إلى بغداد مثلًا توجه إلى دار الخلافة عند وصوله حيث يوافق الخليفة على التعيين ، ثم يخلع عليه طرحة زرقاء وأهبة سوداء. ومما يؤكد ذلك ما حدث مع حجة الإسلام الإمام الغزالى الذى كان تلميذًا لامام الحرمين ، وقد قصد مجلس نظام الملك فناظر الأئمة العلماء في مجلسه ، وقهر

---

(١) محمد التابعى : الدبلوماسية في الإسلام ٧٢.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ، ١٢: ١٣٥، ١٣٦؛ نظام الملك : المصدر نفسه ، ٥؛ عبد الهادى محمد رضا محبوبه : نظام الملك الحسن بن اسحق الطوسى كبير الوزراء في الأمة الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٩، ٣٥٦.

الخصوم فاعترفوا بفضله، فأرسله نظام الملك للتدريس بنظامية بغداد[١]، وفعل ذلك أيضا مع أبى بكر محمد بن ثابت الخجندى (ت٤٩٦هـ/١١٠٢م) الذى سمعه وهو يعظ في مرو فأعجب به وعرف محله من الفقه والعلم، فأرسله إلى اصفهان وعينه مدرسا بمدرستها فنال جاها عريضا[٢]، كما استدعى أبو القاسم على بن المظفر بن حمزة بن زيد الحسينى الشريف العلوى الدبوسى (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م)[٣] للتدريس بنظامية بغداد لبراعته في الفقه والجدل[٤]. وأغلب الظن أن سبب تعيينه كان بعد نجاحه في المناظرة التي عقدت بينه وبين أبى المعالي الجوينى أمام الوزير نظام الملك في أصبهان وتفوقه فيها على منافسه، تفقه عليه جماعة من البغداديين، ومن الغرباء وأملى ببغداد مجالس، سمع أبا عمر بن عبد العزيز القنطري، وروى عنه عبد الوهاب الانماطى، وأبو الفضل محمد بن أبى الفضل المسعودى وآخرون[٥].

---

(١) السبكى: المصدر نفسه، ٤: ١٠٣

(٢) على محمد الصلابى: دولة السلاجقة، المنصورة، ٢٠٠٦م، ٢٤٨ .

(٣) ومما لا شك فيه ان الشريف العلوى كان على المذهب السنى من الأصل أو تحول إلى المذهب السني قبل أن يستدعي للتدريس في النظامية لأنه لم يكن يسمح بالتدريس فيها لغير أهل السنة. عبد المجيد بدوى: التاريخ السياسى والفكرى للمذهب السنى في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجرى حتى سقوط بغداد، دار الوفاء للطباعة ١٩٨٨م، ١٨١.

(٤) الذهبى: تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، تحقيق عبد السلام تدمري، بيروت، ٢٠٠٢/ ٢٠٠٣م، ٣٢: ٣٢؛ ابن الفوطى: مجمع الآداب، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق مصطفى جواد، دمشق ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م، ٥: ١٨٤.

(٥) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، بيروت ـ دار صادر ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ١: ٤٩٠؛ الذهبى: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسى وآخرون، بيروت ـ مؤسسة الرسالة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ١٩: ٩١ـ٩٣؛ ابن الصلاح الشهرزورى: طبقات الفقهاء الشافعية، تحقيق محي الدين على نجيب، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ٢: ٨١٨؛ ابن كثير: طبقات الفقهاء الشافعيين، تحقيق أحمد عمر هاشم ومحمد زينهم، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ٢: ٤٨٣.

وفى بعض الاحيان كان نظام الملك يعجب بعالم فيبنى له مدرسة باسمه ، وقد حدث هذا مع الشيخ أبى إسحاق الشيرازي (ت٤٧٦هـ/١٠٨٣م) الذي بنى له نظامية بغداد ، ومع إمام الحرمين الذى بنى له نظامية نيسابور. وكان نظام الملك يحوط هؤلاء العلماء برعايته حتى احتلوا منزلة رفيعة في البلاد التى حلوا بها ، وصار لبعضهم وجاهة في بلاط السلطان كأبى إسحاق الشيرازى الذي اختاره الخليفة المقتدى في عام ٤٧٥هـ /١٠٨٢م ليحمل شكواه من عميد العراق كما سيأتى ذكره[١].

ومما لا شك فيه أن هذه المدارس قد ساعدت على نشر الثقافة في أرجاء العالم الإسلامى ، ولعبت على اختلاف أنواعها دورًا مهمًا في تنمية وتقدم الحركة الفكرية والعلمية ، وأسهمت في إقامة الصرح العلمى الذى تميزت به الحضارة الإسلامية خلال فترة البحث ، كما أمدت أجهزة الدولة بالعناصر المتعلمة المثقفة والتى كان لانضمامها إلى جهاز الدولة آثاره البعيدة على دقة التنظيم. كما أن إتاحة الفرصة للمسلمين أن يقبلوا في أى مدرسة في بلدان العالم الإسلامى كان له الأثر المحمود في توحيد الفكرالإسلامى وزيادة الترابط الإنسانى مما أدى في النهاية إلى احتكاك الأفكار وانصهارها جميعا في بوتقة العلم لتبرز أفكار مدروسة وآراء مجدية في حقول العلم والأدب ، ومن ثم ربطت هذه المدارس المسلمين برباط الثقافة».

هكذا ساعدت السفارات الثقافية على خلق استجابات إيجابية لسياسة الدولة خارج حدودها أى في الأقطار الأخرى بما يسمح باقامة علاقات مستقرة وروابط ودية بين الشعوب[٢].

---

(١) السبكى : المصدر نفسه ، ٣: ٩١، ٩٢ .

(٢) عطا محمد صالح زهرة : في النظرية الدبلوماسية ، ١١٥.

سفارات التهنئة والتعزية:

وهى التى تسمى سفارات المجاملة ، لأنها في الظاهر تعنى المجاملة بالتهنئة أو التعزية. كإجراء واجب ، وكانت الدول تولى هذه الأمور أهمية خاصة باعتبارها مدخلا إلى علاقات جديدة فيها نوع من المحالفة أو التحالف ، وتوفد السفارات من أجل التعازى ، وفى نفس الوقت التهانى ، لأن الموفد إليه غالبا ما يرث الملك السابق والدا كان او أخا ، فتقدم التعزية للابن أو الاخ وفى نفس الوقت التهنئة. ومن أبرز الامثلة على ذلك عندما أرسل السلطان محمود الغزنوى سفارة لهذا الغرض وقد انتخب لهذه السفارة أكبر الشخصيات مكانة وأعلمهم باللسان العربى وهو أبو محمد عبد السلام بن محمد بن الهضيم من كبار شيوخ الكرامية وعلمائهم سفيرًا إلى الخليفة القادر للتهنئة بتولية ابنه الغالب ولاية العهد ، وخطب ابن الهضيم خطبة في مدح الخليفة ومن بلاغة هذه الخطبة احتفظ بها الخليفة بخزانته[١].

وأرسل السلطان مسعود الغزنوى الفقيه أحمد بن محمد المتكدرى الفقيه الشافعى (٤٢٣هـ/١٠٣١م) سفيرًا إلى الخليفة القائم بأمر الله معزيا له بالقادر بالله[٢].

هكذا كانت مثل هذه السفارات سائدة قديما وحديثا ، حيث أن المشاركة والتهنئة تتوقف أيضا على الروابط والمصالح المشتركة .

سفارات المصاهرات

توثقت عرى الصداقة بين السلطان محمود الغزنوى وقدرخان نتيجة للعقود والعهود ، وقد تم الاتفاق بينهما على أن تخطب الحرة زينب لبغراتكين بن قدرخان

---

(١) العتبى : المصدر نفسه ، ٢: ١٠٩-١١١.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٨: ٢٠٥.

الذى كان يعرف بغراخان ولكنه مات ، ومن ناحية أخرى فقد عقدوا للأمير محمد على ابنة قدرخان فلما قبض على الأمير محمد ولم يتيسر الاتيان بتلك الفتاة تقرر الإقدام على عقد نكاح جديد عليها للسلطان مسعود وذلك لازدياد دعائم الصداقة بين الدولتين ، واتفق رأيهم لتنفيذ هذا الأمر إيفاد سفيرين من كبار العلماء بخطاب[١] وهما أبى القاسم الحصيرى الذى قال عنه السلطان مسعود : «أنه من جملة ثقات مجلسنا وفى درجة خواص ندمائنا ، وقد كان موضعا لعطف وتقدير أبينا السلطان الماضى الذى كان يشاوره في شئون الملك ، وهو اليوم خير ذخيرة للقيام بأعمالنا ، وقد ظهرت لدينا كفايته وقدرته» ، والقاضى أبى طالب التبانى وهو من أعيان علماء الحضرة ، وقد شغل مناصب خطيرة وقام بسفارات جليلة وقد ظهر في كل منها اخلاصه وتدينه[٢]. وقد نجحت سفارتهما بعد أربع سنوات تقريبا في إبرام ميثاق الصداقة بين الدولتين الغزنوية والقراخانية ، وعقد مصاهرتان أحداهما باسم السلطان مسعود والأخرى باسم نجله أبى الفتح مودود أكبر أبنائه وولى عهده[٣].

وقد اتسعت سفارات المصاهرات في عهد السلطان مسعود الغزنوي ، فقد وفد إليه سفيرًا من قبل على تكين يدعى البتكين وبصحبته عبد الله الفارسى خطيب بخارى برسالة يعتذر فيها على تكين عما صدر منه سهوًا ويطلب منه ثلاثة مطالب. وأولها أن يرفع السلطان قدره بتزويج أحدنا إحدى كريمات الأسرة ، والثاني أن يكرمنا بتزويج أحد أبنائه من إحدى بناتنا حتى تنقطع كل المطالع التى تستهدف إليها بلاد السلطان. والثالث أن تتوثق بيننا وبين أرسلان خان صاحب تركستان العهود والمواثيق بواسطة السلطان؛ ليثبت لديه أن لا خلاف بيننا ، وأن

---

(١) البيهقى : المصدر نفسه ، ٢١١-٢١٢.

(٢) البيهقى : المصدر نفسه ، ٢٢٨-٢٣٠.

(٣) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ٤٥٠-٤٥١.

البيوت قد أصبحت بيتًا واحدًا. وقد استقر الرأى إنه ينبغى أن يجاب الرجل إلى مقاصده الثلاثة، واختاروا عبد السلام رئيس ديوان بلخ وكان من الندماء وله سابقة في السفارة، وتقرر أن تخطب إحدى أخوات إيلك للامير سعيد نجل السلطان، وأن تزف إحدى بنات الأمير نصر السبسالار إلى إيلك. وعلى هذا النحو ذهب الرسولان ظافرين بالأمانى[١].

وفى الدولة السلجوقية تزوج الخليفة المقتدى بابنة السلطان ملكشاه بسفارة شيخ الشافعية الإمام أبو اسحاق الشيرازي، وكان عرسها سنة ٤٨٠هـ /١٠٨٧م فولدت له جعفر وكان ملكشاه يريد ان يجعل الخلافة العباسية تتحول إلى ابن ابنته، ولكنه لم يتمكن من حصر الخلافة والسلطنة في شخص حفيده [٢]. كما زوج ابنته الأخرى إلى المستظهر العباسى سنة ٥٠٢هـ /١١٠٨م وقد جرى عقد الزواج في مدينة أصفهان، وجاء زين الإسلام أبا سعد محمد نصر الهروى لاستدعاء الخاتون زوجة الخليفة المستظهر فدخلت بغداد ونزلت بدار المملكة عند أخيها السلطان محمد وزينت بغداد[٣].

السفارات السياسية

السفارات بين الدولة الغزنوية والدولة العباسية

حرص سلاطين الدولة الغزنوية على صبغ حكمهم بالصبغة الشرعية، وكان ذلك لا يتم إلا إذا أرسل الخليفة العباسى تقليدا للسلطان الجديد بالحكم، وهذا التقليد يكسب حكمهم هيبته في نفوس رعاياهم، وكان الخليفة يعبر عن اعترافه

---

(١) البيهقى: المصدر نفسه، ٥٥٠-٥٥١.

(٢) الذهبى: سير أعلام النبلاء، ١٩: ٥٧.

(٣) ابن الجوزى: المنتظم، ٩: ١٥٩-١٦٠.

بالحكم بإرسال الخلع والألقاب إليهم ومما يؤكد ذلك أن السلطان محمود بذل الكثير من الهدايا؛ لكى يحصل على منشور الخلافة ليقره على خراسان ، وقد ورد منشور الخليفة القادر إليه عام ٣٨٩هـ/٩٩٨م بعهد خراسان واللواء والخلعة الفاخرة والتاج ولقبه الخليفة «يمين الدولة وأمين الملة أبا القاسم محمود ولى أمير المؤمنين»[١].

ولما كان السلطان محمود يسعى دائما للحصول على تأييد الخليفة لحكمه ، لذلك طلب من الخليفة أن يرسل إليه بمنشور بولاية سمرقند ، ولكن الخليفة رفض ، مما أدى إلى غضب السلطان وتوتر العلاقة بينهما ، وهدد سفير الخليفة بهدم دار الخلافة بالأفيال ، فرد عليه الخليفة برسالة كتب فيها بعد البسملة «ا ل م ا ل م» فتحير السلطان والحاشية في معنى الرسالة ، ففسرها الفقية أبو بكر القهستانى أنها رد على تهديد السلطان بالأفيال بتذكير السلطان بسورة الفيل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾[٢] فبكى السلطان وأعتذر لسفير الخليفة وأعاده بالتحف والهدايا ، ورفع من مكانة أبو بكر القهستانى إلى درجة الامارة وخلع عليه[٣].

كما حرص الخلفاء العباسيون بدورهم على اعتراف الغزنويين لهم بالسيادة على بلادهم ، فلما توفى الخليفة القادر بالله أرسلت الخلافة الفقيه أبو بكر محمد السليمانى الطوسى سفيرًا إلى السلطان مسعود ، تخبره بوفاة الخليفة وتولية ولى عهده القائم ، فاستقبله عمال السلطان وولاته ووكلاؤه ، وقاموا بما ينبغى من الإعزاز والاكرام ، وأعدوا له موكب جليل لاستقباله ، وأنزلوه في دار فخمة وأحضروا له كثيرا من الاطعمة والمآكل الفاخرة[٤] ، كما أسلفنا وبعد أن أكرموا وفادة السفير واستراح ثلاثة أيام جاءوا به إلى السلطان ليسلمه رسالة

---

(١) الكرديزى : زين الأخبار ، ترجمة عفاف السيد زيدان ، القاهرة ١٩٨٢م ، ٢٨١.

(٢) الفيل: ١.

(٣) محمد قاسم هندوشاه : تاريخ فرشته ، لكهنؤ ، ١٩٠٥، ٢٨.

(٤) البيهقى : المصدر نفسه ، ٣١٣-٣١٥.

الخليفة[١]، فأعلنت مراسم الحداد وعطلت الأسواق ثلاثة أيام لوفاة الخليفة السابق، ثم أقيمت الاحتفالات بتولى الخليفة الجديد. وخلال هذه الفترة كان كتاب الرسائل قد حرروا نسخة للرسالة وقع عليها السلطان تتضمن أن يطلب السفير من الخليفة بعد بلوغه بغداد إصدار عهد جديد يفوض فيه السلطان أمور خراسان وخوارزم وزابلستان والهند والسند وترمذ، وإن لا يكاتب الخليفة خانات التركستان ولا يمنحهم أي لقب من الألقاب، إلا عن طريق السلطان نفسه، وأن يعود هذا السفير السليمانى نفسه خاصة بهذا العهد على أن يكون معه خلعة تدل على مدى حسن رأى الخليفة في السلطان فتكون له ميزة أنه لم يحصل على مثلها أحد من قبل[٢].

وبالفعل ما لبث أن عاد السليمانى يحمل كتابا به تفويض للسلطان بأن كل الأملاك الموروثة والمكتسبة وما يستجد فتحه كلها له، ولقبه بناصر دين الله، فضلا عما أرسله إليه من صناديق الخلع وكان بها سبع فراجيات ـ جبة ـ واحدة منها من الديباج الاسود والباقى من كل صنف، والبسة بغدادية ثمينة. فضلا عن التاج المرصع بالجواهر والطوق والقلادة المرصعة والعمامة الملفوفة. وقد قبلها السلطان وأخذوا ينثرون الذهب والفضة حتى صارت أرض الصفة وكأنها من الذهب، وصارت الحديقة كالفضة من كثرة ما نثروا من أكياس الفضة[٣]. وما لبث أن أمر السلطان مسعود بأن يكتب إلى الولايات بذلك، فنسخ كتاب التفويض ووزعت صوره على الولايات، وأبرزوا فيها الألقاب التي يخطب بها للسلطان على المنابر «ناصر دين الله، حافظ عباد الله»[٤].

---

(١) البيهقى: المصدر نفسه، ٣١٧؛ نظام الدين أحمد: طبقات اكبرى، ٣٦.

(٢) البيهقى: المصدر نفسه، ٣٢٠.

(٣) البيهقى: المصدر نفسه، ٣٩٤، ٣٩٥.

(٤) البيهقى: المصدر نفسه، ٣١٤.

وقد تأثرت علاقة الغزنويين بالخلافة العباسية بعد أن فقدوا خراسان سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م واستولى عليها السلاجقة وأصبحوا بعيدين جغرافيا عن بغداد ، ومع ذلك ظلت الصلة الوثيقة تجمع بين الطرفين ، ففى سنة ٤٦٨هـ /١٠٧٥م أرسل الخليفة المقتدى الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد البيضاوى سفيرا من الديوان إلى السلطان إبراهيم بن مسعود الغزنوى يخبره بوفاة والده وتوليه بعده في الخلافة ، وأخذ البيعة منه[١] .

السفارات بين الدولة الغزنوية والدولة البويهية

كانت علاقات الغزنويين بالبويهيين في عهد سبكتكين يغلب عليها في ذلك الوقت الرغبة المشتركة في الود والصداقة ، وقد عبر الطرفان عن رغبتهما هذه بتبادل الهدايا فأرسل فخر الدولة على بن بويه (صاحب همدان والرى) إلى الأمير سبكتكين أثناء مقامه في بلخ جملة من المبار ونثارًا من الذهب والفضة ، فرد عليه الهدية بأحسن منها ، وزاد عليها ثلاثة من الفيلة الخفاف ، وحمل الهدية أحد ثقاته ويعرف بعبد الله الكاتب فبدر منه ما هدد بإفساد العلاقات؛ إذ بلغ فخر الدولة أن هذا السفير يتجسس عليه فأرسل يلوم الأمير سبكتكين بكلمات لا تخلو من الغلظة ، فعكر صفو العلاقات بينهما ، ولكن فخر الدولة عمل على إصلاح ما فسد ، وأرسل يطلب مصاهرة الأمير سبكتكين فأجابه إلى مطلبه وصفت الحال بينهما عن الشوائب[٢].

وقد ازدادت الرغبة في تحسن العلاقات بعد استيلاء محمود الغزنوى واستيلائه على سجستان سنة ٣٩٣هـ /١٠٠٢م وكان محمود منذ استيلائه على خراسان سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م يسعى إلى الحصول على اعتراف من الخليفة العباسى بولايته

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ٥: ١٠٢.

(٢) العتبى : تاريخ اليمينى ، ٢٤٧-٢٤٩.

عليها ، فراسل بهاء الدولة أبا نصر بن بويه في ذلك[١] ، وبعث إليه سفيره الفقيه أبا عمر البسطامى وجملة من الهدايا من بينها خمسة فيلة ، وسأله التوسط لدى الخليفة فوجه بهاء الدولة فخر الملك أبا غالب بصحبة سفير محمود إلى الخليفة القادر ليسأله ما طلب السلطان الغزنوي[٢] ، وقد توفى بهاء الدولة أثناء هذه السفارة سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ، ولكن وساطته كانت قد أثمرت فأجاب الخليفة محمود إلى ملتمسه وأرسل إليه الخلع والألقاب في شعبان سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م[٣].

وقد تولى سلطان الدولة بعد وفاة أبيه بهاء الدولة ، وكان سفير محمود أبو عمر البسطامى لايزال في بغداد ، فبعث معه رسالة إلى السلطان محمود يؤكد فيها وراثته لعلاقات الود والوفاء تجاه الغزنويين بعد وفاة أبيه[٤].

السفارات بين الدولة الغزنوية والدولة السلجوقية

اتسمت العلاقات بين الغزنويين والسلاجقة بالعداء بسبب أطماع السلاجقة في أراضى الدولة الغزنوية ، ولتحسين هذه العلاقات أرسل السلاجقة بعد هزيمتهم للسلطان مسعود سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م سفيرًا من علماء بخارى كان حسن الحديث ، ليعرب للسلطان عن ولائهم ويلتمس لهم العذر وأن ما حدث كان للدفاع عن أنفسهم[٥].

---

(١) السمعانى : الأنساب ، تعليق عبد الله عمر البارودى ، بيروت ـ دار الجنان ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ٢: ٢٥٠.

(٢) ابن الجوزى : المصدر نفسه ، ٨: ٥٢.

(٣) ابن الجوزى : المصدر نفسه ، ٨: ٥٢؛ العتبى : المصدر نفسه ، ١: ٣١٧.

(٤) العتبى : المصدر نفسه ، ٢: ٢٠٥

(٥) البيهقى : المصدر نفسه ، ٥٢٤ـ٥٢٥.

وعلى أثر هذا قرر السلطان إيفاد القاضى أبى نصر الصينى الذى كان من دهاة الرجال ، مع الفقيه البخارى كى يستمع عن كثب إلى ما يقول أعيان السلاجقة[١] ويعرف أخبار تلك النواحى ، وقد لبث الصينى مدة ثم عاد ومعه الفقيه البخارى وثلاثة رسل من مقدمى السلاجقة وبعد مفاوضات استقر الرأى على أن تعطي لهؤلاء الثلاثة ولايات نسا وفراوه ودهستان ، وأن يرسل إلى كل منهم خلعة ومنشور ولواء وتقرر أن يذهب أبو نصر الصينى ليسلمهم إياها بنفسه ، وأن يأخذ عليهم الميثاق بالوفاء بالعهد مع السلطان ، ولما عاد الصينى من عند السلاجقة أبلغ الوزير وصاحب ديوان الرسائل أنه لا يثق بما عاهدونى عليه لما رأى روح الغرور والعصيان ، ولذلك لا يجوز خداع السلطان[٢] وهما ما أكدته الأحداث بعد ذلك ، ومن هنا يتضح مدى فطنة وبعد نظر هذا السفير العالم.

السفارات بين الدولة الغزنوية والدولة الخانية

ساءت العلاقات بين الدولة الغزنوية والدولة الخانية عقب مطالبة بغراخان بميراث زوجته من السلطان مسعود وبلغ الأمر إلى حد أنه حين دخل السلاجقة خراسان وهزموا بكتغدى ، أظهر بغراخان شماتة وفرح وأغرى السلاجقة سرًا وقوى عزائمهم ووعدهم بأن يمدهم بما يحتاجون من الرجال ، وأرسل لهم رسالة بهذا الصدد. وما أن علم السلطان مسعود بهذه الأخبار حتى غضب ، واستقر رأيه في النهاية على إرسال سفارة لمنع هذه التدابير ، ويكون صاحبها هو الإمام أبو صادق التبانى ، وقد أسبغ السلطان عليه عطفه وقال له : قم بهذه السفارة ، بما يحقق المقصود منها .فاستعد أبو صادق وذهب من غزنة سنة ٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م وظل يعانى أداء هذه المهمة ويجادل عنها حتى قال عنه بغراخان : إنه يذكرنا

---

(١) البيهقى : المصدر نفسه ، ٥٢٦.

(٢) البيهقى : المصدر نفسه ، ٥٢٨، ٥٢٩ .

بمناظرات وجدل أبى حنيفة ، وقد أقروا جميعًا أنهم لم يروا كمثله أحدًا في الصدق والأمانة. ونجح بعد مفاوضات طويلة في إبرام العهد مع أرسلان خان وأخيه ، وأقنعهما بوجوب إيثار الود مع السلطان ، وعاد أبو صادق وولاه السلطان قضاء نيسابور[١].

السفارات بين الدولة السلجوقية والدولة العباسية

حرص سلاطين السلاجقة كما حرص الغزنويون على صبغ حكمهم بالصبغة الشرعية ، وكان ذلك لا يتم إلا إذا أرسل الخليفة العباسى تقليدًا للسلطان الجديد بالحكم ، وكانت علاقة السلاجقة بالخلافة العباسية قد جمع مذهب السنة الفريقين على المحبة والود. وكان سلاطين السلاجقة يظهرون الولاء والطاعة للخليفة العباسى[٢]. فبعد أن وطد طغرلبك أركان دولته سعى للحصول على اعتراف الخليفة العباسي ، لذلك أنفذ في عام ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م رسالة إلى الخليفة القائم بأمر الله حملها إليه الإمام أبو إسحاق الفقاعى[٣] ، وقد تضمنت ولاء السلاجقة له ، والتماسهم الحصول على اعتراف الخليفة بقيام دولتهم[٤]. وما أن وصلت الرسالة إلى الخليفة العباسى حتى سُر بها وأظهر رغبته في التقرب إليهم وبادر بإيفاد أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي سفيرًا إلى السلطان طغرلبك وقد تضمنت الرسالة رغبة الخليفة في عقد صلح بينه وبين الأمير أبى كاليجار البويهى ،

---

(١) البيهقى : المصدر نفسه ، ٥٧٢-٥٧٤.

(٢) عصام الدين عبد الرؤف الفقى : الدول المستقلة في المشرق الإسلامي ، دار الفكر العربى ١٩٩٩م ، ١٥١.

(٣) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى ، بيروت ـ دار الآفاق الجديدة ١٤٠١هـ/١٩٨٠م ، ٨.

(٤) الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ، ترجمة إبراهيم أمين الشواربى وعبد النعيم حسنين ، وفؤاد عبد المعطى الصياد ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م ، ١٦٦.

كما أمر الخليفة سفيره أن يتقرب إلى طغرلبك ويدعوه للحضور إلى دار الخلافة، فضلًا عن هذه الرسالة كان الماوردى يحمل معه إلى طغرلبك كتاب تفويض بحكم البلاد والخلع التى منحها إياه الخليفة[١].

وسار الماوردى إلى السلطان طغرلبك وهو بجرجان فلقيه على أربعة فراسخ إجلالا لرسالة الخليفة وعاد الماوردى سنة ٤٣٦هـ/١٠٤٤م، وأخبر عن طاعة طغرلبك للخليفة وتعظيمه لأوامره ووقوفه عنده[٢]. وقد حكى قاضى القضاة أبا الحسن الماوردى عن طغرلبك فقال: «لما أرسلني القائم بأمر الله إليه سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م كتبت كتابًا إلى بغداد أذكر فيه سيرته وخراب بلاده وأطعن عليه بكل وجه، فوقع الكتاب من غلامي فحمل إليه وكتمه، ولم يحدثني فيه بشيئ ولا تغير عما كان عليه من إكرامى وكان يحافظ على الصلوات»[٣].

واستمرت السفارات بين الطرفين فورد القاضى الفقيه على بن عبيد الله الخطيبى من أهل ما وراء النهر، بغداد في رسالة من السلطان طغرلبك سنة نيف و٤٤٠هـ/١٠٤٨م وناظر أبا نصر عبد السيد بن محمد الصباغ، ولم يناظره غيره[٤].

وأرسل ألب أرسلان أبا سهل محمد هبة الله المعروف بابن الموفق من رؤساء أصحاب الشافعى بنيسابور، سفيرًا للخليفة العباسى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م للموافقة على تعيينه سلطان فمات ابن الموفق في الطريق فلما سمع بموته أرسل العميد أبا الفتح المظفر بن الحسين فمات أيضا في الطريق فألزم السلطان رئيس

---

(١) الراوندى: المصدر نفسه، ١٦٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٨: ٢٦٦.

(٣) المصدر نفسه، ٨: ٣٦٢.

(٤) القرشى: الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة ـ هجر للطباعة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ٢: ٥٧٧ـ٥٧٨ .

العراقيين بالمسير فوصلوا بغداد منتصف ربيع الآخر ، وخرج عميد الدولة ابن الوزير فخر الدولة بن جهير لتلقيهم ، واقترح السلطان أن يخاطب بالولد المؤيد فأجيب إلى ذلك ولقب ضياء الدين عضد الدولة ، وجلس الخليفة جلوسًا عامًا سابع جمادى الأولى وشأفة الرسل بتقليد ألب أرسلان للسلطنه وسلمت إليه الخلع بمشهد من الخلق وأرسل إليه من الديوان لأخذ البيعة النقيب طراد الزينبى فوصلوا فلبس الخلع وبايع للخليفة[١]. وهذا يؤكد حرص الدولة السلجوقية على أخذ التقليد من الخليفة العباسى للحصول على الشرعية ، ومدى ما يلاقيه السفراء من صعوبة ومشقة في الطريق.

ومن ناحية أخرى كان الخليفة العباسي حريصًا على إرضاء السلطان ألب أرسلان فلما علم بسخطه على شرف الدولة حاكم الموصل أرسل نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبى سفيرًا إلى شرف الدولة فأخذه وسار به إلى ألب أرسلان ليشفع فيه عند السلطان ، فبلغهما الخبر بوفاة ألب أرسلان ومسير ابنه ملكشاه فتممها إليه[٢].

ومثال آخر يتضح من خلاله مدى مكانة السفير عندما يكون عالما عندما أوصل الخليفة المقتدي بأمر الله الشيخ أبا اسحاق الشيرازى إلى حضرته سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م وحمله رسالة إلى السلطان ملكشاه ونظام الملك تتضمن الشكوى من العميد أبى الفتح بن أبى الليث عميد العراق وأمره أن ينهى ما يجري على البلاد من النظار فسار ، فكان كلما وصل إلى مدينة من بلاد العجم يخرج أهلها إليه بنسائهم وأولادهم يتمسحون بركابه ويأخذون تراب بغلته للبركة وكان في صحبته جماعة من أعيان بغداد منهم الإمام أبو بكر الشاشى وغيره ، ولما وصل إلى

---

(١) ابن الأثير : المصدر نفسه ، ٨: ٣٦٦-٣٦٧.

(٢) ابن الأثير : المصدر نفسه ، ٨: ٣٩٦.

ساوة خرج جميع أهلها وسأله فقهاؤها كل منهم أن يدخل بيته ، فلم يفعل ولقيه أصحاب الصناعات ومعهم ما ينثرونه على محفته فخرج الخبازون ينثرون الخبز ، وهو ينهاهم فلم ينتهوا وكذلك أصحاف الفاكهة والحلواء وغيرهم ، وخرج إليه الأساكفة وقد عملوا مداسات لطافا تصلح لأرجل الاطفال ونثروها ، فكانت تسقط على رؤوس الناس فكان الشيخ يتعجب ويذكر ذلك لأصحابه بعد رجوعه ويقول : ما كان حظكم من ذلك النثار؟ ، فقال له بعضهم : ما كان حظ سيدنا منه؟ ؛ أما أنا فغطيت بالمحفة وهو يضحك . وعندما وصل الشيرازي أكرمه السلطان ونظام الملك وأجيب إلى جميع ما ألتمسه ولما عاد ، أهين العميد وكسر عما كان يعتمده ورفعت يده عن جميع ما يتعلق بحواشى الخليفة. وما أن وصل الشيخ إلى بسطام خرج إليه السهلكى شيخ الصوفيه بها وهو شيخ كبير ، فلما سمع الشيخ أبو إسحاق بوصوله خرج إليه ماشيا ، فلما رآه السهلكى ألقى نفسه من دابة كان عليها وقبل يد الشيخ أبى إسحاق فقبل أبو إسحاق رجله وأقعده موضعه وجلس أبو إسحاق بين يديه وأظهر كل واحد منهما من تعظيم صاحبه كثيرا وأعطاه شيئا من حنطة ذكر أنها من عهد أبى يزيد البسطامي ففرح بها أبو إسحاق[١].

السفارات بين الدولة السلجوقية والدولة الخانية

لم يكن السفراء العلماء وكلاء للسلاطين فقط ، وإنما كانوا يمثلون عامة الشعب عند الضرورة من ذلك سفارة الفقيه أبو طاهر بن علك الشافعى وهو من علماء سمرقند سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م إلى السلطان ملكشاه شاكيًا إليه ظلم حاكمها أحمد خان وكثرة مصادرته للرعية ، وكان الفقيه يخشى بأس هذا الحاكم فأظهر

---

[١] ابن الأثير : المصدر نفسه ، ٨: ٤٢٨-٤٢٩.

السفر للتجارة والحج فاجتمع بالسلطان وشكا إليه وسأله باسم الرعية القدوم عليهم ليملك بلادهم[١].

السفارات بين الدولة السلجوقية والدولة البيزنطية

قام إبراهيم ينال بغزو الدولة البيزنطية سنة٤٤٠هـ/١٠٤٨م ودار بينهما قتال شديد تبادل فيه الفريقان النصر والهزيمة ، وكان النصر في النهاية للمسلمين وقتلوا عددا كبيرًا من الروم وأسروا العديد منهم ، وكان من بين الأسرى قاريط ملك الأبخاز الذى فدا نفسه بثلاثمائة ألف دينار وبهدايا قدرت بمائة ألف دينار ، ولكن لم يقبل منه ، فشفع له نصر الدولة صاحب الجزيرة وميافارقين ، فبعثه طغرلبك إلى نصر الدولة بلا فداء فتأثر ملك الروم ، وأهدى إلى طغرلبك مائتى ألف دينار ، وخمس مائة أسير ، وألف وخمس مائة ثوب ، و إزاء ذلك قام طغرلبك بإرسال الإمام ناصر بن إسماعيل العلوى سفيرًا إلى ملكة النصارى ، ليستأذنها في الصلاة بجامع قسطنطينية جماعة يوم جمعة ، فأذنت له فخطب للخليفة القائم ، وطغرلبك وعمّر مسجد القسطنطنية وتمكن ملكه[٢].

السفارات العسكرية

وضع السلطان ألب أرسلان نصب عينيه تحقيق هدفي السلاجقة وهما التوسع باتجاه البزنطيين وطرد الفاطميين. وكان ألب أرسلان ينتظر فرصة سانحة ليحقق حلمه بضم بلاد الشام ومصر إلى أملاك الدولة السلجوقية ، وأتاح له النزاع الذى حصل بين أركان الحكم في مصر من أجل السيطرة على المستنصر الفاطمى هذه الفرصة ، حيث كان ناصر الدولة الحسين بن الحسن الحمدانى أحد أبرز القادة في

---

(١) ابن الأثير : المصدر نفسه ، ٨: ٤٥٧.

(٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء ، ١٨: ١١٠، ١١١ .

مصر ، يخطط للقضاء على الدولة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية ، فأرسل أبا جعفر محمد بن البخارى قاضى حلب سفيرًا إلى السلطان ألب أرسلان يطلب منه أن يرسل جيشا إلى مصر ، يساعده في تحقيق هدفه وفور تسلمه الدعوة؛ جهز ألب أرسلان جيشا كبيرا وخرج على رأسه من خراسان متوجها إلى بلاد الشام لإخضاعها لسيطرة السلاجقة ومن ثم متابعة زحفه إلى مصر لإسقاط الدولة الفاطمية ، لكن تحركه كان بطيئا بسبب ما صادفه من عقبات ورغم ذلك عبر نهر الفرات ٤٦٣هـ/١٠٧٠م وقدم له جميع أمراء الجزيرة الولاء أمثال شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلى أمير الموصل ، ونصر بن مروان أمير ميافارقين وابن وثاب أمير حران ، بالإضافة إلى أمراء الترك والديلم.

بينما تقاعس محمود بن نصر أمير حلب ، ولعل ذلك لمعارضة الشيعة في حلب أو لخوفه على استقلاله إذا تجاوب مع مطالب السلطان ألب أرسلان ، فأسل إليه القاضى الفقيه ابا جعفر محمد بن البخارى يدعوه للقدوم إليه لتقديم الولاء والطاعة أسوة بسائر أمراء الجزيرة ، وفتح أبواب حلب لاستقباله ، لكن محمود رفض الدعوة وآثر الاعتصام بحلب والدفاع عنها وتأهب لمقاومة الحصار ، ولما علم السلطان بذلك غضب فحاول الفقيه أبو جعفر التخفيف عنه فقال له : «يا مولانا أحمد الله تعإلى على هذه النعمة؛ وهي أن هذا النهر لم يقطعه قط تركى إلا مملوك وأنت قطعته ملكا» فحمد الله تعالى حمدًا كثيرًا[١].

ونزل السلطان بنقرة بنى أسد إلى أرض قنسرين إلى الفنيدق وكان نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبى بحلب لم ينفصل عنها بعد إقامة الدعوة ، فسأله محمود أن يخرج إلى السلطان ويصلح أمره معه ، فخرج مستفسرا ومتوسلا وتلطف الأمر وأحسن السفارة . وخاطب السلطان بأنه قريب العهد بالخطبة للخليفة وقد لبس

---

[١] ابن أبى جرادة : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سقيل زكام ، القاهرة ـ دار الكتاب العربى ١٩٩٧، ١: ٢٦٠-٢٦٢.

تشريفه. فقال السلطان : «أى شئ تساوى خطبته للخليفة ولبس تشريفه ، وهم يؤذنون حى على خير العمل ومع ما سبق من شقه العصا وخروجه عن الطاعة» وأبى قبول الشفاعة فيه بدون وطء محمود بساطه فخاف محمود ولم يجب إلى ذلك ، وتمادى الامر نحو شهرين[١] .

ولم تتوقف المفاوضات خلال ايام الحصار للوصول إلى حل لكن دون جدوى بسبب التصلب في المواقف واشتد الحصار على البلد وغلت الأسعار وعظم القتال وزحف السلطان يوما وقرب من البلد فلما عظم الأمر على محمود خرج ليلا ، ومعه والدته منيعة بنت وثاب النميرى. فدخلا على السلطان وقالت له : هذا ولدي فافعل ما تحب فتلقاهما بالجميل وخلع على محمود وأعاده إلى بلده فأنفذ إلى السلطان مالًا جزيلًا[٢].

قد أيقظت صدمة سقوط القدس غفوة العديد من الفقهاء والقضاة وأدركوا حقيقة ذلك الغزو بعد أن هدد وجودهم ومكانتهم في مدن تلك البلاد فضلًا عن الأرض والعقيدة الإسلامية؛ ولذلك بادر فقهاء وقضاة الشام من دمشق وحلب وطرابلس للاستنجاد بالسلطة المركزية ببغداد ، والإمارات المحلية باعتبارها تملك القوة العسكرية القادرة على مواجهة ذلك الغزو[٣] (ففى عام ٤٩٢هـ/١٠٩٨م) سافر وفد منهم إلى بغداد وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا ، وبكوا وأبكوا ، وذكروا ما داهم المسلمين من قتل الرجال وسبى الحريم والأولاد ، ونهب الأموال ، فلشدة ما أصابهم أفطروا فأمر الخليفة أن يسير القاضى أبو محمد الدامغانى ، وأبو بكر الشاشى وأبو القاسم الزنجانى ، وأبو الوفاء بن عقيل ، وأبو سعد الحلوانى إلى السلطان السلجوقى بركياروق في أصفهان مقر السلطة السياسية والعسكرية

---

(١) ابن أبى جرادة : المصدر نفسه ، ٢٦٠-٢٦٢.

(٢) ابن الأثير : المصدر نفسه ، ٨: ٣٨٧-٣٨٨.

(٣) آسيا نقلى : دور الفقهاء والعلماء في الجهاد ضد الصليبيين ، ٦٨.

الفعلية لمساعدة فقهاء دمشق في طلبهم، ولكى يتخلص من عبئهم ويحمله مسؤولية تلك المهمة حتى إن اختياره لأؤلئك الفقهاء كان ذكيا هو الأخر؛ لأن البعض منهم تشير القابهم إلى أن أصولهم من مناطق فارس وبلاد ما وراء النهر، ولكن هدف الوفد كان بعيدًا عن التحقيق، وعند وصول ذلك الوفد إلى مدينة حلوان علم بمقتل الوزير السلجوقى مجد الملك البلاسانى، واختلاف سلاطين السلاجقة ببلاد فارس حول حكم المنطقة وبذلك عاد الوفد من بغداد دون ان يكمل نجاحا وعاد القاضى ورفقته بغير نجدة ولا قوة الا بالله[١].

ديوان الإنشاء[٢]

كان هذا الديوان مسئولًا عن الشئون الخارجية فيقوم بإعداد الرسائل الرسمية التى تصدر عن السلطان إلى الحكام والولاه وغيرهم، ويستقبل الرسائل الواردة للسلطان ويترجم ما يرد بلغات أجنبية[٣].

ويرأس هذا الديوان شخص يطلق عليه الرئيس أو صاحب ديوان الرسائل، وهو في الواقع رئيس ديوان الإنشاء السلطانية، يأتمر بأمره عدد كبير من الموظفين والمحررين المنشئين الذين كانوا ينعمون بثقة الدولة ويحفظون أسرارها[٤] ويشترط في متولي هذا الديوان أن يكون فصيحًا بليغًا أديبا قوي الحجة، حسن الألفاظ عالمًا

---

(١) آسيا نقلى: المرجع نفسه، ص٦٨-٧٠.

(٢) ديوان الإنشاء اسم مركب من مضاف وهو ديوان ومضاف إليه وهو الإنشاء أما الديوان فاسم للموضع الذى يجلس فيه الكُتاب، أما الإنشاء فهو مصدر أنشأ الشئ ينشئه إذا ابتدأه واخترعه. القلقشندى: صبح الاعشى في صناعة الانشا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، وزارة الثقافة،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة، ٨٩، ٩٠.

(٣) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ١٦٤.

(٤) أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة في التاريخ والحضارة، الكويت، ١٩٧٥م، ٢١٠؛ عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة، ترجمة أحمد كمال الدين حلمى، ١٩٨٤م، ٥٢، ٥٣.

بأسرار اللغة[١] وأن يلم بشئون السياسة وفن التأثير ومخاطبة الملوك ، لذا استعمل سبكتكين لهذا المنصب الشاعر الكاتب أبا الفتح البستى وظل حتى عزل في عهد محمود[٢] ، ثم تولاه ابو القاسم احمد بن حسن الميمندى[٣] ثم تولاه أبو نصر مشكاه الذى استمر رئيسا للديوان حتى عهد السلطان مسعود الأول ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م وكان البيهقي المؤرخ نائبًا له ثم تولى هذا المنصب أبو سهل الزوزنى واستمر في رئاسته حتى عهد فرخزاد بن مسعود[٤].

وكانت الرسائل تكتب باللغة العربية واللغة الفارسية ، وقد تقدمت اللغة العربية على الفارسية في المكاتبات الرسمية لفترة محدودة ، حيث كان الديوان فارسًيا في عهد الوزير أبو العباس فضل بن أحمد الاسفراييني ، ولكن السلطان محمود أمر وزيره التالى أحمد بن حسن الميمندى بتحويله إلى العربية ، وألزم كبار الكتاب بتحاشى الفارسية إلا عن ضرورة من جهل المرسل إليه بالعربية ، ولكن هذه الضرورة فرضت نفسها لأن أكثر المرسل إليهم من الولاة والحكام لا يعرفون العربية ، ولكن الرسائل الموجهة إلى الخليفة ببغداد كتبت بالعربية ، وترجمت الرسائل الواردة بالعربية من الخليفة إلى السلطان حتى تفهمها الحاشية ، وظلت العربية اللغة الرسمية للمراسلات في زمن مسعود حيث خضع الأمر لاهتمام الوزراء ومعرفتهم بالعربية ، واهتم وزير آخر حكام الغزنويين بترجمة كليلة ودمنة من العربية إلى الفارسية[٥].

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى في صناعة الإنشا ، ٦٨.

(٢) العتبى : تاريخ اليمينى ، ١: ٦٧-٧١.

(٣) المصدر نفسه ، ٢: ١٦٦.

(٤) البيهقى : تاريخ البيهقى ، ٧٨.

(٥) سمير عبد الحميد إبراهيم : اللغة العربية وقضية التنمية اللغوية في باكستان ، دار المعارف ، ١٩٨٢، ١٥.

بينما كانت الرسائل السرية بين السلطان وعيونه تكتب بالشفرة السرية وبرموز خاصة ، وقد ذكر البيهقي أن السلطان مسعود كلفه بوضع الرموز ليستخدمها في كتابة الرسائل السرية فقام البيهقي بمعاونة وزير السلطان بوضع هذه الرموز[١] وكان الأستاذ أبو نصر يعد المسودة بينما يقوم البيهقى بنسخها. وكانت هذه هي القاعدة طوال حياة أبى نصر فيما يختص بكتب ملوك الأطراف والخليفة وخانات تركستان وبكل ما هو مهم من أعمال الديوان[٢].

وممن قام بالعمل في ديوان السلاجقة مؤيد الملك منتخب الدين بديع على بن أحمد الكاتب الجوينى الذى كتب مجموعة الرسائل التى عرفت بـ«عتبة الكتبة» ، وكان منتخب الدين صاحب ديوان الرسائل في عهد السلطان سنجر ، وقد دونت هذه المجموعة ما بين (٥٢٨-٥٤٨هـ/١١٣٣-١١٥٣م) ، وكان هدفها كيفية تعلم الكتابة والإنشاء[٣].

الخاتمـــة

ومن خلال هذا العرض يتضح أن السفارات خلال فترة البحث قد ارتكزت على الجهود الذاتية للسفير بغض النظر عن طبيعتها ، فالسفير هو الواسطة بين جهتين يقوم بمهمة خاصة ، ونفهم من هذا أن نجاح أية مهمة موقوفة بحسن الاختيار من قبل المرسل والأسلوب الذي يتبعه السفراء في تحركاتهم. وكانت عروض السفراء ومفاوضاتهم تدل على سمو الخلق والوفاء بالعهود وصدق النية .

---

(١) البيهقى : المصدر نفسه ، ٧٢١.

(٢) البيهقى : المصدر نفسه ، ٦٠٥.

(٣) محمد عوفى : لباب الألباب ، طبعة ليدن ، ١٩٠٦م ، ١: ٧٨، ٧٩؛ محمد السعيد جمال الدين : دولة الإسماعيلية ، في إيران ، بيروت ، ١٩٩٩م ، ١٢٩.

وكانت السفارات تختلف في كل دولة وفقا للمقومات التى تتميز بها هذه الدولة أو تلك ، وتحت تأثير الظروف والملابسات التاريخية أو القدرية والمقومات الأساسية للسفارة. كما أن نشاط السفارات لا يسير دائمًا على وتيرة واحدة من حيث الزمن الذى يستغرقه ، فقد يكون بطيئًا حينًا وفق عوامل معينة ، وقد يكون سريعًا حينا آخر .

وقد كشفت الدراسة عن ترسيخ نظام السفارات واختيار السفراء ومهامهم في العصرين الغزنوي والسلجوقي وهو في الحقيقة نتاج حضاري حقيق لعظمة الإسلام وبناة الدولة الإسلامية في العصور المتقدمة أنتجت كثيرًا من الأمور الحضارية التى أصبحت فيما بعد من القواعد المهمة التي يحتذى بها السفارات في العصور التالية وفيما بعدها ، من ذلك صفات السفراء والرسل الجسمانية والخلقية والعلمية ، ومن ذلك واجبات ، وحقوق السفراء من الإكرام والحصانة وما عليهم من الواجبات.

ولاشك أن هذا الصرح الحضاري المتكامل للدبلوماسية الإسلامية أرسى أسسه وقواعده رجال عاشوا في القرون السابقة ، ووضع كل منهم لبنة في هيكله حتى اكتمل البناء ، وإذا كانت هناك تغيرات قد طرأت على السفارات بعد ذلك فإن أكثر التغييرات يرجع إلى التعبيرات والاصطلاحات والظواهر ، أما الأسس فقد ظلت ثابتة حتى الأن . ومن ثم فالعالم المتحضر مدين بالكثير للدبلوماسية الإسلامية وتكفي الإشارة إلى أن المجتمع الدولى اعترف لأول مرة رسميا بوجود ما نسميه بالسلك الدبلوماسي كوظيفة رسمية قائمة بذاتها لرجال محترفين في مؤتمر فيينا سنة ١٢٣١هـ/١٨١٥م في أعقاب هزيمة نابليون وإعادة تنظيم أوربا ومن حينها وبدأت تأخذ وضعها في البروتوكولات العالمية على الرغم من تواجدها في العصور المتقدمة كما أسلفنا .

وفي النهاية فإني أرجو أن يلقى بحثي القبول وأن يكون بداية لمزيد من الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع والتي تستحق أن تلقى حقها من العناية والاهتمام .